IHYA
İhya Uluslararası İslam Araştırmaları Dergisi
International Journal of Islamic Studies

فصاحة المفردة القرآنية ومنهج اصطفائها – سورة إبراهيم نموذجاً

Sahl DERSHAWİ*

ملخص البحث

تتضافر عناصر متعددة لإبراز الإعجاز اللغوي كأحد جوانب الإعجاز في القرآن الكريم في مقدمتها المفردة التي تعد حجر الأساس في أي نظم، ومادته الأولى، كونها اللبنة التي يتشكل منها بناء الكلام ونظمه. ولما كانت سلامة النظم من سلامتها وفساده من فسادها، فقد حظيت المفردة بدراسة علماء البلاغة واهتمامهم، لغرض إظهار بلاغة النص القرآني وتميزه وجماله.

وفي هذا السياق يأتي البحث الذي بين أيدينا لتسليط الضوء على المعايير التي وضعها علماء اللغة لسلامة المفردة، أو ما يعرف بشروط فصاحة المفردة، ثم تطبيق تلك المعايير على المفردة القرآنية من خلال سورة إبراهيم، لإبراز وجوه فصاحة الكلمة القرآنية وصفائها وسلامتها من العيوب. كما يُظهِر البحث دقة البيان الإلهي في اصطفاء مفرداته، والدور الذي تؤديه المفردة القرآنية في سياق النظم.

الكلمات المفتاحية: فصاحة – المفردة – مخارج الحروف – سورة إبراهيم.

KUR'AN KELİMELERİNİN FESAHATİ VE SEÇİLMELERİNİN YÖNTEMİ - İBRAHİM SURESİ ÖRNEĞİ

Öz

Dil bakımından Kuran'ı Kerim'in icazını, çeşitli öğeler oluşturur. Dizilimin temel taşı ve ana maddesi olan kelime, bu öğelerin en başında gelmektedir. Bu kelime, ifadelerin yapısını ve dizimini oluşturan kerpiç konumundadır. Zira nazmın sağlıklı olması, kelimenin sağlıklı olmasına bağlı olduğundan, onun ayırt edici özelliklerini ve onun güzelliğini ortaya çıkarmak amacıyla kelime, belağat alimlerinin çalışma alanında önemli bir yer edinmiştir. Bu araştırmada, dil alimlerinin kelime için vaz ettiği kıstaslara veya fasih kelimenin kriterleri olarak bilinenlere, İbrahim Süresi bağlamında ışık tutmaya çalışılacaktır.

* Okt. Karabük Üniversitesi İlahiyat Fakültesi.

Kur'an'daki kelimelere bu ölçüyü tatbik etmek, onun kelimelerinin berraklığını, kusurlardan beri olduğunu ve fesahat yönünü ortaya çıkarmak içindir. Ayrıca bu araştırma, ilahi beyanın kelimelerinin seçiminde ve nazmının dizilişindeki rolünün inceliğini ortaya çıkarmaktadır.

Anahtar kelimeler: Fesahat, kelime, harflerin mahreçleri, İbrahim suresi.

THE FLUENCY AND ELOQUENCE OF THE QUR'ANIC WORDS AND THEIR SELECTION METHOD - THE EXAMPLE OF CHAPTER IBRAHIM

Abstract

In terms of language, different items form the concision of the Qur'an. Word, which is the keystone and main factor of any sequence, comes forward among these items. This word is the adobe that creates sequence and structure of expressions. Because healty verse depends on healty word, the words has been become more of an issue by balagha scholars due to that its significant role as revealing Qur'ans balagha, its distingtive quantities and beauty.

In this sence, this research illuminates to criteria of healthy words or fasih words that belagah schollers indicate.

In addition,ıt aims testing this technique on Qur'ans words in sense of Surah al Ibrahim, to show up clarity, perfection and powerful manner of telling in Qur'ans words. Also this research, reveals the presicion of the role in divine speaches word choises and verse sequenses.

Keywords: Rhetoric, word, spelling knowledge, chapter of Abraham,

تمهيد:

الحمد لله الذي جعل كتابه المبين لساناً عربياً ناطقاً بأفصح ما عرفه العرب من بيان، وأعلى ما في كلامهم من أسلوب وأبلغ ما سمعوه من حديث، ونصبه شاهداً على صدق دعوى نبيه وسيفاً مسلطاً على رقاب منكريها، والصلاة والسلام على أشرف من نطق بالضاد سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فقد كثر حديث العلماء عن معجزة القرآن الكريم، وطال كلامهم حول وجوه إعجازه، حتى أفردوه بالتصنيف وأولوه من الاهتمام الكثير، إظهاراً منهم لعظمة كتاب الله واستعلائه على كلام البشر شعراً كان أم نثراً. وإذا تصفحنا هذا الموضوع في كتب التراث عند الذين تناولوا الإعجاز بالبحث وكتبوا فيه نجد أن كل عالم منهم قد أفرغ وسعه في استنباط ما تراءى له في القرآن من وجوه عدَّها إعجازاً، فمنهم من اكتفى بوجه واحد برهن عليه ودافع عنه، ومنهم من عدد وجوهاً كثيرة حتى أوصلها المائة، وما يهمنا أن الكل متفق على الوجه المتعلق بالفصاحة والبلاغة، وأنه الذي وقع به التحدي للعرب وبه ظهر

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

عجزهم، ونقصد به سمو القرآن الكريم في بديع لفظه وعجيب تأليفه وبلاغته إلى الحد الذي يعجز الطوق البشري عن الإتيان بمثله، يقول الإمام الخطابي: " واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا لأَنه جاءَ بأَفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني"[1] ولكن هذا الكلام يبقى مبهماً فضفاضاً مفتقراً للإيضاح، بل يزداد غموضاً كلما تقادم به العهد عن زمن نزول القرآن الكريم حين كانت البلاغة والفصاحة سليقة. ولذا فقد شغل بيانه علماء الإعجاز والبلاغة فكانت منهم مذاهب، ففي الوقت الذي قصر فيه عبد القاهر الجرجاني الإعجاز اللغوي على النظم والتأليف والترصيف نافياً أن تكون للكلمة فصاحة خارج النظم والتركيب، نجد علماء آخرين أمثال الخطابي والجاحظ وابن سنان الخفاجي وابن الأثير والباقلاني يدافعون عن جمالية المفردة وصفائها حتى قبل انتظامها في سلك الكلام، ويعترفون بدورها الكبير في الارتقاء بالنظم إلى مَصَافِّ الإعجاز، فاللفظة القرآنية برأيهم تمتاز عن أخواتها بفضل مزيَّة تتجلى ابتداء بحروفها جرساً ومخرجاً وحركات، ثم طريقة تأليفها وبنائها، وانتهاء بموقعها في الجملة. وقد أجاد ابن عطية بقوله: "كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد"[2]

ورغم اختلاف الفريقين في موضوع اتصاف المفردة بالحسن والقبح خارج السياق والنظم فإنهما متفقان على فصاحة الكلمة القرآنية وجمالها وصفائها، وحسن اصطفائها وبديع إيحائها.

وفي هذه الدراسة يود الباحث أن يبرز صفاء المفردة القرآنية وفصاحتها، وخلوها من العيوب القادحة في جمال الكلمة، على ضوء من الضوابط والشروط التي وضعها أهل اللغة لفصاحة اللفظ في اللغة العربية، إضافة إلى بيان دقة القرآن الكريم في انتقاء مفرداته. ولما كانت ضوابط الفصاحة موضع خلاف ونقاش بين علماء اللغة فقد آثر الباحث البدء بعرض آرائهم، وتحقيق أقوالهم لاستخلاص المعايير التي سيسير على هديها في دراسة وجوه الفصاحة في المفردة القرآنية، ثم الانتقال بعد ذلك إلى الجانب التطبيقي للبحث وهو الكلمة القرآنية، ولما كان متعذرا على بحث بهذا الحجم تناول كلمات سور القرآن الكريم كلها بالبحث والدراسة فقد وجد الباحث في سورة إبراهيم حقلاً تطبيقياً مناسباً لدراسته؛ كونها متوسطة الطول وما ينطبق على مفرداتها يندرج على مفردات سائرها من سور الكتاب العزيز، فالكل يخرج من مشكاة واحدة لا تفاضل بين سورة وأخرى.

معنى فصاحة المفردة

الفصاحة لغة تعني: الظهور والإبانة، وأصل الكلمة يدل على خلوص في شيء ونقاء من عيب[3]. أما اصطلاحاً فقد عرفها القزويني في المفرد بقوله: "وهي في المفرد خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس"[4] وقال الرازي: "الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد"[5] وقال الهاشمي: "الفصاحة عبارة عن الألفاظ البينة الظاهرة، المتبادرة إلى الفهم والمأنوسة في

[1] الخطابي، بيان إعجاز القرآن الكريم (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): 27

[2] ابن عطية، المحرر الوجيز: 52/1

[3] ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة: 50

[4] القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 21/1، الشريف الجرجاني، التعريفات: 167

[5] الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: 36

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

الاستعمال بين الكتاب والشعراء لمكان حسنها .."[6] وقال العلوي في تعريفها: "هي خلوص اللفظ عن التعقيد في تركيب الأحرف والألفاظ جميعاً"[7] وهكذا نرى أن تعريف الفصاحة يختلف باختلاف الضوابط التي وضعها العلماء لخلوص اللفظ من العيوب التي توجب له القبح والثقل في النطق أو الكراهة في السمع.

والراجح عند أهل الفن أن الفصاحة صفة للفظ لا للمعنى، ولذا نرى الناس يقولون: هذا لفظ فصيح، ولم نسمع أحداً قال: هذا معنى فصيح وإنما يقال معنى بليغ، وبذلك يكون الفرق بين البلاغة والفصاحة أن "الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني. لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها إنها فصيحة. وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغاً كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه" [8]

معايير فصاحة المفردة عند علماء اللغة:

اللفظ المتصف بالفصاحة لا بد له من شروط وأوصاف ذكرها أهل اللغة واختلفوا فيها، ومن المفيد أن أطرحها هنا ليتسنى لنا فيما بعد إظهار خصائص المفردة القرآنية وميزاتها وفصاحتها على ضوء من هذه الضوابط والمعايير

عند ابن سنان الخفاجي:

جعل ابن سنان الخفاجي أوصاف اللفظ الفصيح ثمانية هي[9]:

1. تباعد مخارج الألفاظ: والعلة في ذلك أن الحروف تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ومعلوم أن الجمع بين الألوان المتباينة أجمل منظراً من المتقاربة، وكذلك الأصوات التي تصدرها الأحرف كلما تجافت مخارجها كانت أحسن وأظرف للسمع، كما أن تأليف الكلمة من الحروف المتقاربة المخارج يجعل النطق بها عسيراً وثقيلاً، ويستشهد لذلك بلفظة (الهعخع) و (مستشزرات) فأنت ترى ما فيهما من التنافر بين حروفهما وصعوبة النطق. وهذا يعني أن لمخارج الحروف دوراً في حسن تأليف الكلمة وقبحها، فلحروف الحلق مزية في القبح إذا تركبت المفردة منها فقط في حين نجد سلاسة في الكلمة التي تدخلها حروف الشفة لما تتصف به من الخفة والرقة.
2. التأليف الخاص المختار لبناء الحروف المتباعدة في الكلمة: إذ يكون لتأليف الكلمة في السمع حسن ومزية على غيرها وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة المخارج، كما يجد الإنسان لبعض الألوان والنغمات وقعاً في النفس وحسناً يميزه عن غيره مما هو من جنسه، وما ذاك إلا لوجه يقع عليه التأليف، كما في حروف (ع ذ ب) فإن السامع يجد لما يتألف منها على وجه: العذيب (اسم موضع)، عذيبة (اسم امرأة)، عذب، عذاب، عذبات حسناً لا يجده فيما لو غيَّر في وجه تأليف هذه الأحرف بأن قدم الباء أو الذال، وليس السبب في ذلك تباعد الأحرف وإنما تأليف الكلمات من هذه الحروف على وجه مخصوص. ومثال ما يكره من الألفاظ كلمة (الجرشي) التي وردت في قول المتنبي:

[6] الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: 19

[7] العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز: 57/1

[8] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة:59

[9] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: 64-92

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

İHYA ULUSLARARASI İSLAM ARAŞTIRMALARI DERGISI CILT: 3 SAYI: 2 GÜZ-2017
İHYA INTERNATIONAL JOURNAL OF ISLAMIC STUDIES VOLUME: 3 ISSUE: 2 FALL-2017

مُبارَكُ الاِسمِ أَغَرُّ اللَقَبْ كَريمُ الجِرِشّى شَريفُ النَسَبْ

فإننا نجد في لفظة (الجرشي) التي تعني (النفس) تأليفاً ينبو عنه السمع ويستقبحه الذوق.

3. أن لا تكون اللفظة متوعِّرة وحشيَّة كلفظة (كهل) في قول ابي تمام:

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه بلا طائر سعد ولا طائر كهل

فإنها من الألفاظ الموغلة في الغرابة والوحشية لدرجة أن الأصمعي نفسه لم يعرف معناها، ولا وجود لها إلا في شعر بعض الهذليين، فرغم أنها لا توصف باللفظة البشعة فإنها ليست فصيحة لغرابتها وخفاء معناها. ويستشهد كذلك بما روي عن أبي علقمة النحوي قوله: مالكم تكأكأتم عليَّ كتكأكئكم على ذي جنة، افرنقعوا عني. فإنه قد جمع إلى غرابة الألفاظ تنافر الحروف وقبح التأليف.

4. أن تكون الكلمة غير مبتذلة ولا ساقطة من ألفاظ العوام كقول أبي تمام:

جَلَّيْتُ والموت مُبْدٍ حُر صفحته ... وقد تَفَرْعَنَ في أفعاله الأجل

فإن لفظة (تفرعن) لفظة سوقية مبتذلة تجري على ألسنة العامة يقصدون بها التجبر والظلم وهي مشتقة من (فرعون) رمز الطغيان والظلم والتكبر.

5. جريان الكلمة على القياس اللغوي الصحيح، فلا تكون خارجة على قواعد بناء الكلمة العربية، ولا مخالفة لما تواضع عليه العرب. وقد أحصى أهل اللغة كثيراً من الألفاظ التي عدوها غير فصيحة لهذا السبب أكتفي منها بذكر ما ورد في قول البحتري:

يشق عليه الربعُ كل عشية جيوبَ الغمام بين بِكرٍ وايِّمِ

فوضع الأيم مكان الثيب وليس الأمر كذلك، إنما الأيم التي لا زوج لها تستوي في ذلك البكر والثيب.

6. أن لا يعبَّر بالكلمة عن معنى آخر مستهجن يستكره ذكره، فإنها تكون قبيحة إن وردت في الكلام، وإن أُرِيْدَ بها المعنى الأصلي. ويستشهد أهل اللغة بكلمة (غائط) التي وردت في بيت لعمرو بن معد يكرب يقول فيه:

فكَمْ مِنْ غائِطٍ مِنْ دُونَ سَلَمى قليلِ الأُنْسِ ليسَ بِهِ كَتِيعُ

وهو لا شك يقصد بلفظ (الغائط) معناه الأصلي الذي يعني المنخفض الواسع من الأرض، لكن اللفظ يكنى به عن معنى آخر قبيح هو مكان قضاء الحاجة أو البراز نفسه، فكان حرياً بالشاعر اختيار كلمة أخرى أكثر صفاء ونقاء.

7. اعتدال عدد حروف الكلمة: فالكلمة الطويلة تكون عسيرة في النطق ثقيلة على السمع ما يجعلها قبيحة وخاصة في الشعر كلفظة (سويداواتها) في قول المتنبي:

إنَّ الكرامَ بلا كِرَام منهم مثلُ القُلُوب بلا سويداواتها

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

فالمتنبي قد خرج إلى الشاذ النادر في تركيب هذا اللفظ من حروف كثيرة فجاءت الكلمة ثقيلة ودميمة. لكن مسألة الاعتدال ترجع إلى أمور أخرى في الكلمة يستحسنها المتلقي أو يستقبحها فهي مسألة نسبية بين الأشخاص.

8. تصغير الكلمة في موضع يعبّر به عن شيء خفي أو قليل أو لطيف، فالتصغير ينتهي باللفظ إلى نكتة بلاغية فيزيد من بلاغته وحسنه وجماله، ويوحي بأثر نفسي محبب.

ويستشهد في هذا المقام بقول عمر بن أبي ربيعة:

وَغابَ قُمَيرٌ كُنتُ أَرجو غُيوبَهُ ورَوَّحَ رُعيَان ونَوَّمَ سُمَّرُ

فالشاعر قد اختار التصغير هنا بعناية، وهو يوحي بالدلال والود والإعزاز، فهو قمير لم يكتمل قد غاب في أول الليل.

عند ابن الأثير:

تعقب ابن الأثير الشروط التي ذكرها ابن سنان، فناقشها ورد بعضها، فضابط الحسن والقبح عنده هو السمع والذوق السليم، ولكن هذا لا يمنع من وضع معايير تضبط جمال الكلمة وفصاحتها، وتباعد مخارج الحروف عنده لا يصلح وحده ضابطاً لورود كلمات كثيرة حروفها متقاربة المخرج وهي مع ذلك فصيحة لا تستوجب ثقلاً على السمع ولا عسراً في النطق كقولنا (جيش) فهي لفظة حسنة محمودة رغم أن حروفها كلها متقاربة المخرج تخرج من وسط اللسان بينه وبين الحنك وتسمى بالحروف الشجرية، وتبقى كذلك جميلة إذا بدّلنا بين حروفها فقلنا (شجي)[10].

وكذلك الأمر في حروف الفاء والباء والواو مخرجها الشفة وتسمى بالحروف الشفوية، فإذا نظمنا منها كلمة جاءت حسنة كقولنا: ذقته بفمي، فأنت تلاحظ سلامتها في كلمة (بفمي) رغم تألفها من حروف مخارجها متقاربه. وفي المقابل فإن تجافي مخارج حروف بعض الألفاظ لا ينفي عنها القبح والدمامة كلفظة (ملع) وتعني عدا، أو أسرع. فأنت تلاحظ أن الميم مخرجها الشفة، والعين تخرج من الحلق، واللام من وسط اللسان، ومع ذلك فهي مكروهة في الاستعمال في حين حاول أن تغيّرَ من ترتيب نفس الحروف لتجد كلمة (علم) الفصيحة. يقول ابن الأثير: " وما ندري كيف صار القبح حسنا؛ لأنه لم يتغير من مخارجها شيء، وذاك أن اللام لم تزل وسطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها، ولو كان مخارج الحروف معتبرا في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة في ملع وعلم "[11]

ثم ينتقل إلى وصف آخر ذكره ابن سنان وهو جريان اللفظ على العرف العربي المعهود فيقول فيه:" فليس ذلك مما يوجب لها حسنا ولا قبحا، وإنما يقدح في معرفة مستعملها بما ينقله من الألفاظ فكيف يعدّ ذلك من جملة الأوصاف الحسنة؟"[12]

وأما تصغير اللفظة وما يعبر به عن لطيف معنى أو خفيفه فهذا مما لا حاجة إلى ذكره برأي ابن الأثير؛ لأن المعنى هو من يسوق إليه وليست معاني التصغير من الأشياء الغامضة التي تفتقر إلى التنبيه عليها، كونه ذكر في كتب النحو ومع هذا

[10] ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 159/1

[11] ينظر: المرجع السابق: 160/1

[12] ينظر: المرجع السابق: نفس الصفحة

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

فصاحب هذه الصناعة مخير في ذلك؛ إن شاء أن يورده بلفظ التصغير، وإن شاء بمعناه، كما جاء في قول الشاعر مقللاً من شأن قوم ومحقراً لهم:

لَوْ كان يَخْفَى على الرَّحْمَن خافيَةٌ ... من خَلْقِهِ خَفِيتْ عَنْهُ بَنُو أَسَدِ

فهل كان بمقدور الشاعر إفادة هذا المعنى من التصغير بإيراد ألفاظ التصغير؟ [13]بهذا يخلص ابن الأثير إلى انعدام الداعي إلى إيراد هذا الوصف.

وفيما يتعلق باعتدال عدد حروف الكلمة الفصيحة يرى ابن الأثير أن هذا الضابط ليس دقيقاً، فالعلة التي جعلت كلمة (سويداواتها) نابية غير فصيحة ليس طولها ولا عدد حروفها، وإنما في إيرادها بصيغة الجمع لأن مفردها مقبول حسن، ودليله أن في القرآن الكريم كلمات طويلة فما زادهن طولهن إلا فصاحة وحسناً مثل (ليستخلفنكم) ، و(فسيكفيكهم) ،ثم ينتهي من ذلك إلى تعديل هذا الشرط ليكون كالتالي: "ومن أوصاف الكلمة أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيبا"[14] ويفسر كلامه بأن المعتبر في الثقل هو أصل اللفظ لا ما هو عليه مع الزيادات الصرفية، فهناك الثلاثي الأصل والرباعي والخماسي، واللفظ لا يستحسن إلا في الثلاثي وفي بعض الرباعي كما في (عذب)، و(عسجد) أما الخماسي من الأصول فهو قبيح نافر لا يحسن منه شيء، وهذه لفتة تحسب لابن الأثير ويحمد عليها، فنحن نجد الثلاثي أكثر الأصول وروداً في القرآن الكريم يليه الرباعي الذي ورد ست مرات، في حين لم يرد من الخماسي شيء إلا ما كان من اسم أعجمي الأصل لنبي ذكر في القرآن فصار عربياً نحو إبراهيم وإسماعيل.

ويبدو أن ابن الأثير سلَّم ببقية الشروط عندما شرع يفصل القول فيها. ثم نجده يضيف صفتين أخريين يرى لهما دوراً كبيراً في جعل اللفظ خفيفاً عذباً فصيحاً وهما[15]:

- أن تكون اللفظة مؤلفة من حروف خفيفة يسهل نطقها، ويرتاح لها السمع دون نظر إلى طول الكلمة أو قصرها. فالحروف منها ما هو شديد ثقيل كالضاد والجيم والقاف، ومنها ما هو سلس لين كالأحرف الشفوية والذلقية تنساب على اللسان كالماء العذب يجري في الساقية.

- أن تكون حركات الحروف المكوّنة للكلمة كذلك خفيفة سهلة متناسبة لا تشق على النطق ولا ينبو عنها السمع، فتوالي حركتين خفيفتين في الكلمة يرققها ويلطفها بعكس توالي الحركات الثقيلة، ولذلك تستثقل الضمة على الواو، والكسرة على الياء لأن الضمة من جنس الواو والكسرة من جنس الياء فتوجبان العسر في النطق.

عند العلوي:

اقتفى العلوي في كتابه الطراز أثر ابن الأثير وسار على نهجه في اعتبار أصول الكلمات هي الأساس عند الحكم على جماليتها وفصاحتها، فهناك الثلاثي الشائع الفصيح، ويليه الرباعي ثم الخماسي النادر، وهو يتبع ابن الأثير كذلك في

[13] ينظر: المرجع السابق: 161/1

[14] ينظر: المرجع السابق: 191/1

[15] ينظر: المرجع السابق: 191/1-193

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

صياغة معيار الفصاحة من صفات الحروف المؤلفة لبنية الكلمة وحركاتها، حين ينظر إلى فصاحة المفردة باعتبارين: مخارج حروفها وصفاتها "فالأحرف الشفهية أخف الأحرف موقعا، وألذها سماعا، وأسلسها جريا على الألسنة. وحروف الذلاقة منها وهي الراء، واللام، والنون، لأن مخرجها من ذولق اللسان وهو طرفه، ويكثر استعمالها في الكلام، وما ذاك إلا من أجل خفّة مجراها وطيب نغمتها، وسهولتها على النطق"[16] والواضع حسب رأيه قد تصرف بحكمة حين لم يجمع بين العين والحاء، وبين الغين والخاء، وبين الجيم والصاد، وبين الذال والزاي لما يوجبه اجتماعها من البشاعة والثقل على الألسنة في النطق.

والعلوي يعيد مؤكداً ما قاله ابن الأثير عن فعالية حركات الحروف خفيفها وثقيلها وأثرها في سلاسة اللفظ أو وعورته، غير أنه يرى أن حصول السكون في وسط الكلمة أعدل من توالي الحركات وإن كانت خفيفة، وكأنه يريد بذلك كثرة المقاطع الصوتية؛ فكلما كثرت كانت الكلمة ألين وأسهل على النطق، ويرى أن توالي الفتحات أخف من توالي الضمات، ولهذا كانت كلمة (فَرَساً) أخف من (عضُدٌ)[17]

ولكن يبدو أنه شعر بعدم اضطراد ضابطه حين اصطدم بعشرات الكلمات التي وردت في القرآن الكريم وتوالت فيما الضمتان، كما في (الزُّبُر، النُّذُر، سُعُر ..) فعاد ليلوذ بالمعيار الذي ما فتئ ابن الأثير يذكره ويحيل عليه في كتابه وهو تحكيم الذوق السليم، فقال: "..إن مستند الحسن والقبح والإعجاب والنفور في تأليف الكلام إنما هو سلامة الطبع وتحكيم الذوق"[18]

الرافعي وضابط الفصاحة:

حاول الرافعي أن يسعف العلوي ويسند ضابطه الذي هوى أمام ما ذكرنا من كلمات القرآن، فصار يبحث عن سر الفصاحة في هذه الكلمات التي حافظت على رونقها وخفتها رغم توال الضمات على حروفها، فرأى أن الألفاظ التي سبقت هذه الكلمة قد مهدت لها بحركاتها وصفاتها، حتى إذا وصل القارئ للكلمة المقصودة جرت على لسانه خفيفة دون أن يشعر بشيء من الوعورة أو الثقل فقال: " قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36) . فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حس السمع وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد)، وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا)، مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد"[19].

واضح أن الرافعي يجعل تتابع الفتحات سبيلاً لتخفيف وطأة توالي الضمتين، لكن ما ذكره الرافعي ودافع عنه لا ينطبق على المفردة المذكورة نفسها في موضع آخر من سورة القمر (فذوقوا عَذَابِي ونُذُر) وغيرها من المفردات التي توالت على حروفها حركة الضم الثقيلة وكانت لازمة موسيقية للسورة دون أن تسبقها تشكيلة صوتية واحدة من الحركات التي ذكرها.

[16] العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 58/1

[17] ينظر: المرجع السابق: 60/1

[18] العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 59/1

[19] الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية:157

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

وبه نعلم أن ما جاء به الرافعي من تعليل غير منضبط ولا مطرد في مفردات القرآن؛ إذ غاب عنه أن يشير إلى طبيعة الحروف وما لها من تأثير في جعل الضمة ثقيلة أو خفيفة، فالفتحة وكذلك الضمة والكسرة تختلف شدتها وثقلها باختلاف الحرف الذي تظهر عليه فهي مفخّمة مع حروف الإطباق (ص، ض، ط، ظ) وهي ذاتها تكون في حالة وسط بين الترقيق والتفخيم عند ظهورها على حروف (ق، ع، غ، ح)، وترقق مع باقي المواقع الصوتية الأخرى. وبما أن حرفي النون والذال ليسا من حروف الإطباق؛ بل من حروف الانفتاح إذ يبتعد اللسان عند النطق بهما عن الحنك الأعلى تاركاً فتحة يمر فيها الهواء والصوت، كانت الضمة بناء عليه مرققة بنفسها بعيدة عن الثقل والشدة.

رأي الباحث في المعايير التي ذكرها أهل اللغة

ومن عرض أقوال أهل البيان في هذه المسألة، يظهر لي أن الشروط التي ذكرها ابن سنان لفصاحة الكلمة لا تصلح وحدها أن تكون ضوابط دقيقة ومعايير واضحة تميز فصيح الكلم من رديئه، فهي لم تسلم من المناقشة والنقد وقد رد ابن الأثير كثيراً منها، رغم أننا لا ننكر كونها في عمومها أوصافاً للكلمة الفصيحة، وبالنظر فيما قدمه كل من ابن الأثير والعلوي نرى أنهما قد اقتربا من وضع ضوابط دقيقة لفصاحة الكلمة عندما تعرضا للجانب الصوتي للكلمة بحديثهما عن صفات الحروف وحركاتها، وكذلك الرافعي بما أولاه للجانب الموسيقي للكلمة من اهتمام غير أنهم لم يوفقوا في تفسير عدم اطراد ما ذكروه في مفردات القرآن الكريم، وتخلّفَ ضابطُهُم في أحيان كثيرة، ولذلك نرى ابن الأثير– والعلوي من بعده – يلجآن في ذلك إلى تحكيم الذوق السليم، كما ورد في الطراز " والمعيار في ذلك هو عرضه على ما قلنا من تحكيم الذوق، ولهذا فإنه قد يتوالى ضمتان وهو غير ثقيل كقوله تعالى ضَلالٍ وَسُعُرٍ"[20] وهذا ينم عن قصور في الضابط الذي جاؤوا به. ورغم ذلك فإن الضوابط التي قدمها هؤلاء تقدم لنا تصوراً واضحاً عن صفات الكلمة العذبة الفصيحة، فهم قد أحسوا بأن السمع والذوق يميلان إلى تفضيل ما لا يجهد أعضاء النطق من الكلمات والتراكيب، ولما لم يكن تجافي مخارج الحروف وحده ليصلح ضابطاً ضموا إليه صفات الحروف من الهمس والجهر والشدة والرخاوة والمد والغنة وسائر أحكام التجويد، إضافة إلى حركات الحروف المختارة في تأليف الكلمة. ولا يبعد أن تكون مجتمعة المعيار الذي تعتمد عليه اللغة في تنقية مفرداتها، إذ لا يغيب عنا أن اللغات تعمل باستمرار على تشذيب نفسها بتنقية مفرداتها فيما يشبه عملية التصفية، فتبقي على السلس الحسن ليصير مع الزمن وكثرة الاستعمال والتداول مألوفاً على الأسماع مقبولاً في الطباع، وتنفي ما عداه من الألفاظ فيصير وحشياً غريباً، وشذوذ بعض المفردات عما ذكروا من القواعد يعيدنا مضطرين إلى نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم كونها الوحيدة التي يمكنها أن تحوش ما شرد من المفردات إلى حظيرة القاعدة، وتقدم لنا التفسير الدقيق لفصاحة الكلمة بالنظر إلى موقعها من النظم واحتياج موضعها لها.

وعليه مهما قيل عن فصاحة المفردة فإنه يبقى ناقصاً ما لم يقترن بفصاحة المفردة في الجملة؛ عند استقرارها في الموضع المناسب لها وائتلافها مع سابقاتها ومن تليها من الألفاظ، مسبوكة في سياقها كما اللبنة من البناء، لا يُبتغَى بها بدل فيما تؤديه من وظيفة وتفيده من معنى، فقد تستهويك لفظة قد جمعت كل الشروط التي ذكرناها ولكنك تجد خللاً في التأليف

[20] العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 60/1

المختار في التركيب أو موقعه الإيقاعي واتساقه المعنوي أو اتساع دلالته أو ضيقها قد أصابها فأودى بجمالها وانتقص من فصاحتها، كما وقع للمتنبي حين قال:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

فقد روي هذا البيت في مجلس أبي العلاء فقال عنه: هذا والله شعر مدبر[21]، رغم أن المتنبي قد استعان بمفردات مألوفة فصيحة، لكن سوء التأليف أذهب نقاءها وأزهق فصاحتها.

وفي المقابل قد تجد مفردة ثقيلة غريبة ولكنها في النظم تستدعيك، فلا ترى أنسب منها ولا أحسن في موقعها، فتمد لك الآفاق في التصوير والمعاني ما يعجز عنه غيرها.

ومن هذه الدراسة لآراء أهل البيان وشروطهم في فصاحة المفردة ووفقاً لما استخلصناه منها ورجحناه نشرع بحول الله في دراسة اللفظة القرآنية في نطاق سورة إبراهيم بغرض بيان وجوه فصاحتها وجمالها وسبب انتقائها واصطفائها.

وجوه فصاحة المفردة القرآنية في سورة إبراهيم

خلوها من الوحشي الغريب

ما يلفت انتباه القارئ في هذه السورة– كشأن كل سور القرآن الكريم – خلوها من المفردات الغريبة الوحشية، فإذا انعمنا النظر في مفرداتها نجدها قريبة مألوفة، ودارجة على ألسنة العرب ومستعملة في حواراتهم وشعرهم ونثرهم، ونحن لا نقصد بالغريب هنا ما يرد في كتب غريب القرآن؛ لأن أهل اللغة يقسمون الغريب إلى حسن وقبيح؛ فالقبيح منه ما شق على الفهم، وبعُدَ عن الإدراك، وكدَّ الذهن فلا يُتَوصل إلى معناه إلا بعد معاناة فكر وعناء طويل، وهو لذلك مكروه ومستهجن يعلُّ الفصاحة ويحطّ منها، أما القسم الحسن من الغريب فهو ما ارتفع عن المبتذل من كلام العامة وسما عن سفسفها، أو هو كلام من بعدت بهم الديار من القبائل العربية، فإذا ما وقعت إلينا كلمة من لغاتهم استغربناها[22]، وهذا القسم الثاني هو المراد بغريب القرآن، فما أبعد ألفاظ القرآن عن الغريب المستوحش من الكلام، والمتوعر من الألفاظ، وهو البيان الذي سحر بلغاء العرب ولامس شغاف قلوبهم.

ومعلوم أن البيان الإلهي قد اشتمل على ألفاظ من لهجات مختلف قبائل العرب كقريش وهذيل وكنانة والأوس والخزرج وخثعم وجرهم وقيس وكندة وحمير ومدين وغيرها[23].. وهذا النوع من الغريب لا يعاب استعماله على العرب، ولا يسمى وحشياً ولا متوعراً، وقد ذكر صاحب كتاب اللغات في القرآن الكريم ثلاثة مواضع من هذا القبيل في سورة إبراهيم هي[24]:

في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) (إبراهيم/28)، دار البوار: يعني دار الهلاك بلغة عُمان. وأصل ذلك من البوار وهو الكساد، لأنه لما كان فرط الكساد يؤدي للفساد عبر به عنه، فيقال: بار السوق أي كسد، وأرض بور أي لم تزرع بعد، وأرض بائرة، ورجل بائر[25]، كما في قول الشاعر[26]

[21] ينظر: ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: 98

[22] ينظر: الخطابي، غريب الحديث: 71/1

23 ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 169/1

24 ينظر: عبد الله السامرائي، اللغات في القرآن الكريم:33

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

İHYA ULUSLARARASI İSLAM ARAŞTIRMALARI DERGISI CILT: 3 SAYI: 2 GÜZ-2017
İHYA INTERNATIONAL JOURNAL OF ISLAMIC STUDIES VOLUME: 3 ISSUE: 2 FALL-2017

يا رسولَ المليكِ إنَّ لساني راتقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بُورُ

في قوله تعالى: (رَّبَّنَا إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشكُرُونَ) (إبراهيم/37)، أفئدة من الناس: يعني ركباناً من الناس بلغة قريش، و(تهوي إليهم): تقصدهم وتحن عليهم وتميل وتنزع إليهم، وقيل: تحبهم وتهواهم[27].

في قوله تعالى: (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) (إبراهيم/43)، مقنعي رؤوسهم: يعني ناكسي رؤوسهم بلغة قريش، وقيل: المقنع من رفع رأسه وأقبل بطرفه على ما بين يديه لا يلتفت ببصره يميناً ولا شمالاً[28]، وأصل القنع[29] اسم مشترك بين الرضا والاكتفاء وبين السؤال فيقال: قنِع بالكسر أي رضي باليسير، ويقال قنَع بالفتح يقنع قنوعاً إذا سأل، قال الشاعر[30]:

لَمَالُ الْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفَاقِرَهُ أَعَفُّ مِنَ الْقُنُوعِ

ومناسبتها للكلمة القرآنية يظهر في أصلها، فقيل: هي مأخوذة من القناع، وهو ما يغطى به الرأس، وقنعَ: إذا رفع قناعه كاشفاً رأسه بالسؤال، وإذا تخيلنا حركة السائل وهو يرفع رأسه نحو الأعلى يمدّه مصوباً عينين نحو من يتوقع منه التصدق عليه ويستمر في مد رأسه مزيلاً قناعه وكاشفاً عن وجهه لا يحيد ببصره عن أمامه، أقول: إذا تكاملت عناصر هذا المشهد في أذهاننا أمكننا تصور المشهد الذي تعرضه الآية الكريمة.

وإذا تصفحنا ما يعرف بكتب "غريب القرآن" نراها قد توسعت كثيراً في مفهوم الغريب، وأوردت معظم مفردات القرآن حتى المألوف منها، غرضها من ذلك على ما يبدو تسهيل فهم القرآن على الأجيال التي تلت عصر نزول الوحي وخالطت العجمة لسانها، وإلا فإن معظم مفردات القرآن الكريم كانت في متناول فهم الصحابة ظاهرة الدلالة واضحة المعنى.

ولا يمنعنا ذلك أن نسوق بعضاً من ألفاظ سورة إبراهيم مما عدت في غريب القرآن ونكتفي بما ذكر عند ابن قتيبة[31]:

في قوله تعالى: (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) (إبراهيم/15) استفتحوا: استنصروا أي طلبوا الفتح والنصر.

في قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم/7)، قوله: "تأذَّن": أي أعْلَمَ، وهو من آذنتك بالأمر، أي أخبرتك وأعلمتك.

---

[25] ينظر: السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ:243/1

[26] البيت لأبي علي بن الزبعري بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤيّ، وهو آخر شعراء قريش المعدودين، وكان يهجو المسلمين ويحرّض عليهم كفار قريش، وأسلم يوم الفتح فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إسلامه وعفا عما سلف له، فقال هذا البيت عند إسلامه. ينظر: أبو على القالي، الأمالي: 213/2، وشرحه: سمط اللآلي، محمد البكري: 388/1

[27] ينظر: ابن قتيبة، غريب القرآن: 233، ابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن: 203، محمد الخضيري، السراج في بيان غريب القرآن: 108

[28] ينظر: ابن قتيبة، غريب القرآن: 233، ابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن:203

[29] ينظر: السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ:342/3

[30] البيت للشماخ بن ضرار. ينظر: الجاحظ، البخلاء: 238

[31] ينظر: ابن قتيبة، غريب القرآن: 230-234

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

وفي قوله تعالى: (مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ) (إبراهيم/16) "صديد": هو القيح والدم، أي يسقى الصديد مكان الماء، ويجوز أن يكون على التشبيه أي يسقى ماء كأنه صديد.

وفي قوله تعالى: (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ) (إبراهيم/21) قوله: "محيص" معدل، يقال: حاصَ عن الحق يحيصُ؛ إذا زاغ وعَدَل.

وفي قوله تعالى: (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) (إبراهيم/43)"مهطعين": مسرعين، من قولهم أهطع البعير في سيره إذا أسرع.

وفي قوله تعالى: (سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ) (إبراهيم/50) "سرابيلهم" مفردها سربال، وهو القميص.

مفردات اختصّ بها القرآن:

ونقصد بها الألفاظ التي أضافها القرآن الكريم إلى لغة العرب ولم تكن مستعملة عندهم، ولا علم لهم بها من قبل مثل: الترتيل، والنفاق، والفسوق، وجهنم، وكذلك المفردات التي أضفى عليها القرآن دلالة جديدة غير تلك التي كانت تحملها في عرف العرب نحو: الصلاة، والجحيم، والتهجد، والقارعة، والفلاح، والفوز وغيرها..

ونقف في سورة إبراهيم من النوع الأول على كلمة "جَهَنَّم" التي تعد جديدة لم يستعملها العرب في كلامهم؛ وإنما أضافها القرآن الكريم وأوردها سبعاً وسبعين مرة، وفي سورة إبراهيم ورد اللفظ مرتين في قوله تعالى: (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ) (إبراهيم/16) وقوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ) (إبراهيم/28-29)

وقد زعم قوم على رأسهم يونس بن حبيب كما نقل عنه الجواليقي أن هذا الاسم أعجمي ويعني النار التي يعذب الله بها يوم القيامة، ودليلهم على ذلك عدم قبوله الجر قالوا: لاجتماع علتي التعريف والعجمية[32]، فيما ذهب آخرون إلى اعتبارها عربية وجعلوا العلة في عدم انصرافها ثقل التأنيث إلى جانب ثقل التعريف، قال الجوهري:" جَهَنَّمُ من أَسماءِ النارِ الّتِي يُعَذِّبُ بِهَا اللهُ عِبادَه، وَهُوَ مُلْحَقٌ بالخُماسِيّ بِتَشْدِيد الحَرْفِ الثالِث، وَلَا يُجْرَى للمَعْرِفة والتأنيث"33، وأصل مادة جهنم ذكره ابن خالويه: بئر جهنام للبعيدة القعر، ومنه سميت جهنم، قال: وهذا يدل أنها عربية[34].

إذن فالكلمة عربية وأصل معناها بُعدُ قعر الشيء وعمق تجوفه مع اضطمامه على هذه التجويف، ويؤيد ذلك أن أحاديث كثيرة وردت تصف جهنم بالعمق السحيق مثل (يهوي بها في نار جهنم سبعين خريفاً)[35]، وكذلك وصفت في القرآن نحو (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ)(القارعة/9) فقد سماها البيان الإلهي "هاوية" والهاوية "كل مهواة لا يدرك قعرها" وهي من الألفاظ التي تفرد القرآن في ابداعها، ولا يخفى ما تنطوي عليه الكلمة من الجزالة والدقة في التعبير إضافة إلى مناسبة حروفها لمعناها فالجيم

[32] ينظر: أبو منصور الجواليقي، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: 249

[33] الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: مادة (جهنم)

[34] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: مادة (جهنم)

[35] هذا جزء من حديث رواه ابن ماجة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ، لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا، فَيَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا " والحديث في إسناده محمد بن أسحق وهو مدلس. ورواه كذلك الترمذي بلفظ قريب وقال: حسن غريب. ينظر: سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم: 3970، وسنن الترمذي، أبواب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم: 2314

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

تعبر عن هيكل غير مصمت، والهاء عن فراغ جوفه، والنون عن امتداد ذلك الفراغ في الباطن، والميم عن تضامها واستوائها على ذلك بقيام هيكلها هكذا، أو بأن عمقها الشديد جداً يبرز تضام ظاهرها على جوفها أو على ما يلقى فيها. ويمكن أن نضيف دليلاً آخر على أصالتها العربية وهو تشابهها مع كلمة "الجحيم" من الناحية الصوتية، والجحيم تعني "كل نار عظيمة في مهواة "، وتظهر الصلة الصوتية بينهما في أن الحاء والهاء أختان والنون تزيد الامتداد العمقي، فهي تجمع في معناها بين النار والعمق[36].

ومن النوع الثاني من الألفاظ التي أضفى عليها البيان الإلهي معاني أخرى ودلالات دينية نقف منها في سور إبراهيم عند لفظة "الصلاة"

أصل مادة الصلاة من "صلو" ومن "صلا" وتجمع على صلوات، وقد قيل: إن الصلا: العظم الذي عليه الإليتان، وقيل هو وسط الظهر لكل ذي أربع وللناس، وقيل التعظيم، وقيل: اللزوم[37]، وقيل هي من "صلَّيتَ العصا تصلية، إذا أدرتها على النار لتقويمها"، "صلّى عصاه على النار: ليّنها وقوّمها"[38] وعليه يكون المعنى الأصلي للفظة لين أثناء الشيء أو رخاوته من الداخل مع تماسك يسمح للتصرف بها كما في تليين العصا على النار لثنيها أو تقويس طرفها[39]، ومن هذا المعنى – لين الأثناء ورخاوة الداخل– استعملت الصلاة للدعاء الذي يعني التضرع لاستنزال الرضا أو الفضل لما يتضمنه الدعاء من خشوع في الباطن ولين في القلب وراحة في النفس. "قال ابن الأثير: تكرر في الحديث ذكر الصلاة وهي العبادة المخصوصة وأصلها الدعاء في اللغة، فسميت ببعض أجزائها"[40]، وقال صاحب الصحاح: "الصلاة الدعاء"[41] قال الأعشى:

عليك مثل الذي صلَّيتِ فاغتمضي يوماً فإن لجنب المرء مضطجعا[42]

إذن من الدعاء جاءت تسمية الصلاة الاصطلاحية المشتملة على الركوع والسجود؛ لأن الدعاء أحد أجزائها وقوامها، فالصلاة حقيقة شرعية لا دلالة لكلام العرب عليها إلا من حيث اشتمالها على الدعاء الذي هو أصل معناها، ونجد القرآن الكريم يستعمل هذا اللفظ في معناه الأصلي وفي المعنى الشرعي قال تعالى مخاطباً نبيّه: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(التوبة/103) "أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتي بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: (اللهم صل على آل أبي أوفى)" [43]

[36] ينظر: محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: 353

[37] ينظر: الفراهيدي، العين، الزبيدي، تاج العروس، مادة (صلو) وينظر: ابن منظور، لسان العرب، والجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة (صلا)

[38] ينظر: أبو منصور الأزهري ت370، تهذيب اللغة، الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة: صلا

[39] ينظر: محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: باب الصاد، مادة (صلو، صلى)

[40] ابن منظور، لسان العرب، مادة: صلا

[41] والجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة: صلا

[42] ينظر: ابن منظور، لسان العرب:465/14

[43] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم:207/4

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

وفي الآيات الثلاثة التي ورد فيها لفظ الصلاة في سورة إبراهيم استعملت اللفظة بالمعنى الجديد الذي أضافه القرآن لها وهو المعنى الشرعي الذي يراد به: عبادة مخصوصة لها هيئة معروفة، وهي عبادة "لم تنفك شريعة منها، وإن اختلفت صورها بحسب شرع فشرع، لذلك قال تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا) (النساء/103)"[44] والآيات هي:

(رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)(إبراهيم/37) فقد كانت العبادة والصلاة خاصة الغاية التي ترك من أجلها سيدنا إبراهيم ذريته عند بيت الله المحرم في تلك الأرض الخالية من مقومات الحياة من زرع وماء، وجعل يتضرع إلى الله تعالى أن يهدي بعض القوافل والركبان إليهم عسى أن يكونوا لهم عوناً وسكناً، والمراد بالصلاة هنا الصلاة ذات المفهوم الديني وإن كنا نجهل كيفيتها قال القرطبي: " خَصَّهَا مِنْ جُمْلَةِ الدِّينِ لِفَضْلِهَا فِيهِ، وَمَكَانِهَا مِنْهُ، وَهِيَ عَهْدُ اللَّهِ عِنْدَ الْعِبَادِ، قَالَ ﷺ: "خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ" "[45].

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ) (إبراهيم/31) يأمر الله تعالى نبيه بتبليغ المؤمنين خطاب الله القاضي بالتزام شريعته المتمثلة في أداء الصلوات المفروضة وإخراج الزكاة، والتزام سائر أركان الإسلام قبل نفاذ مدة الامتحان والرحيل من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة دار الحساب حيث لا تنفع مقايضة ولا تجدي صداقة، قال القرطبي: " أَنْ (يُقِيمُوا الصَّلَاةَ) يَعْنِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ "[46].

(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) (إبراهيم/40) دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام اللهَ أن يوفقه لأداء الصلاة معدلاً إياها ومواظباً عليها.[47]

بناء المفردة القرآنية في سورة إبراهيم

A. عدد الحروف المشكلة للمفردة

وبالعودة إلى فصاحة المفردة وتميزها وجمالها نجد أن ابن الأثير جعل من شروط فصاحة المفردة أن يكون جذرها مبنيا من أقل عدد من الحروف، لذا كان الحسن في الثلاثي الأصل، وقَلَّ في الرباعي فيما تجد الخماسي نافراً وقبيحاً، قال سيبويه رحمه الله : "وأمّا ما جاء على ثلاثة أحرف فهو أكثر الكلام في كل شيء من الأسماء والأفعال"[48] وإذا نظرنا في القرآن الكريم معين الفصاحة ودستور البلاغة نرى أن جل الألفاظ الواردة فيه من الثلاثي المجرد أو المزيد أفعالاً وأسماء، ونلحظ أنه نادراً ما استعمل الرباعي في بيانه حتى أمكن حصر مفرداته رباعية الأصل من الأفعال في ثمانية: "بعثر، وسوس، دمدم، عسعس، زحزح، زلزلوا، حصحص، كبكبوا" ومن الأسماء ستة هي: "برزخ، سرمد، زخرف، سندس، سلسلة، شرذمة"، ومن الاسم الرباعي المزيد بحرفين جاء منه في القرآن الكريم ثلاثة ألفاظ هي: "العنكبوت، زمهريرا، قمطريرا" ومن الاسم

[44] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: 491
[45] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 371/9
[46] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 366/9
[47] البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 202/2
[48] سيبويه، الكتاب: 229/4

الخماسي المزيد بحرف لم يقع منه إلا لفظان هما: "زنجبيلا، سلسبيلا" أما الخماسي المجرد فلم يستعمله القرآن الكريم لما يحمله من عسر في النطق وثقل على السمع قال ابن جني: " ذوات الأربعة مستثقلة غير متمكنة تمكن الثلاثي . . . ثم لا شك فيما بعد من ثقل الخماسي وقوة الكلفة به"[49] والقرآن الكريم حريص على أن تكون ألفاظه خفيفة على اللسان عذبة رقيقة تأخذ موقعها من قلب السامع.

ولما كان الرباعي من الأفعال والأسماء قليلاً معدود الورود في القرآن الكريم فإن من المتوقع ألّا نجد له أثراً في سورة قصيرة كسورة إبراهيم، فكانت جميع الأفعال الواردة فيها من الثلاثي إما المجرد أو المزيد، وعند إحصاء الأفعال وتصنيفها صرفياً كانت النتيجة كالآتي:

الفعل الثلاثي المزيد بحرف واحد

الوزن (أفعل): ورد منه (19) فعلاً هي: (أخرج، أنزل، أرسل، أضلَّ، أنجى، أراد، أوحى، أهلك، أسكن، أذهب، أخلف، أشرك، أحلَّ، أدخل، أقام، أنفق، أنذر، أجاب، أقسم)

الوزن (فعَّل) ورد منه (7) أفعال هي: (ثبَّتَ، بدَّل، سخَّر، أخَّر، بيَّن، ذكَّر، ذبَّح)

الوزن (فاعل) ورد منه (3) أفعال هي (آمن، آذى، آتى)

الفعل الثلاثي المزيد بحرفين:

الوزن (تفَعَّلَ) ورد منه (8) أفعال هي: (تأذَّن، توكَّل، تجرَّع، تذكَّر، تمتَّع، تقبَّل، تبيَّن، تبدَّل)

الوزن (افتَعَل) ورد منه (4) أفعال هي: (اشتَدَّ، اجتَثَّ، ارتَدَّ، اتَّبعَ)

الوزن (استَفعَل) ورد منه (5) أفعال هي: (استحبَّ، استحيا، استفتح، استكبر، استجاب)

أما باقي الأفعال التي استعملت في السورة والتي بلغ عددها (80) فعلاً فكانت من نصيب الثلاثي المجرد، ونستنتج من ذلك أن القرآن الكريم حين ينتقي كلماته يتوخى فيها الخفة والحسن والجمال، فكلما كانت اللفظة أقصر كانت أسهل على النطق وأطيب على السمع، ولما كان الثلاثي المجرد هو الأصل في اللغة، كان الأكثر وروداً واستعمالاً في السورة الكريمة، فبلغ ضعف استعمال أنواع مزيده مجتمعةً ثم تلاه المزيد بحرف واحد، ومن أوزانه كانت الصدارة لـ (أفعل) كونه الأخف في أسرته، ثم جاء الثلاثي المزيد بحرفين.

وكذلك الأمر بالنسبة للأسماء التي اشتملت عليها السورة نجد أنها ذات أصول ثلاثية تجري على أسلات اللسان طرية دون مشقة، وطيبة على سمع المتلقي، وما زاد على الثلاثي إلا أسماء أعجمية كأسماء بعض الأنبياء التي وردت في السورة مثل (إبراهيم، إسماعيل)، ورغم طول هذه الكلمات وكثرة حروفها فإنها لم تخرج عن الفصاحة ولم توجب ثقلاً في الكلام؛ لأن الحروف التي تألَّفت منها هذه الكلمات قد ليَّنتها وجلبت لها السلاسة والخفة، فكلمة "إبراهيم" قد حوت على ثلاثة حروف عدّها أهل اللغة مُليّنات للكلمة وهي حرف الباء والراء والميم كونها تنتمي لأسرة الأحرف الشفوية والذلقية التي لا

[49] أبو الفتح ابن جني، الخصائص: 62/1

تخلوا منها كلمة عربية فصيحة زاد أصلها على ثلاثة أحرف، إضافة إلى أثر حرف المد. وكذلك كلمة "إسماعيل" نجد أن تأليفها من حروف متباعدة المخارج إضافة إلى المد قد أبعد عنها الثقل ومشقَّة النطق وأوجب لها الحسن. ثم نلحظ أن الكلمتين تنقسمان إلى مقاطع صوتية تجعلهما في النطق كما لو كانت ألفاظاً متعددة منفصلة، فكلمة إبراهيم قسمت إلى أربع مقاطع صوتية (إب/ را/ هي /م)، وكذلك كلمة إسماعيل: (إس/ ما/ عي/ ل) الأمر الذي هوّن مهمة أعضاء النطق ومنحها فسحة وراحة عند أداء الأصوات.

B. الانسجام بين مخارج حروف المفردة:

أثناء الحديث عن فصاحة اللفظ في اللغة العربية ذكرنا بعض الشروط والضوابط الصوتية المتعلقة بمخارج الحروف وصفاتها التي جعلها أهل اللغة سمات لجمالية المفردة وفصاحتها، وقبل الشروع في البحث عن تطبيقاتها في سورة إبراهيم نرى من المفيد عرض القواعد التي استنبطها أهل اللغة عند دراستهم لبنية الكلمة العربية ومخارج الحروف التي تتألف منها وصفاتها. فقد تكلم العلماء عن تباعد المخارج وأثر ذلك في فصاحة المفردة، غير أن رتب الفصاحة قد تتفاوت حتى مع تباعد المخارج وذلك بحسب الانتقال من حرف إلى آخر إذ قد يلائمه أو لا، فتثقل الكلمة بناء على ذلك أو تخفّ. وقد ذكر السبكي اثني عشر وجهاً لتأليف الكلمة ثم رجَّح بينها من حيث الفصاحة وهي:

الأول – الانحدارُ من المخرج الأعلى إلى الأوْسط إلى الأدنى نحو (ع د ب).

الثاني – الانتقالُ من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوْسط نحو (ع ر د)

الثالث – من الأعلى إلى الأدنى إلى الأعلى نحو (ع م ه).

الرابع – من الأعلى إلى الأوْسط إلى الأعلى نحو (ع ل ن).

الخامس – من الأدنى إلى الأوْسط إلى الأعلى نحو (ب د ع).

السادس – من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط نحو (ب ع د).

السابع – من الأدنى إلى الأعلى إلى الأدنى نحو (ف ع م).

الثامن – من الأدنى إلى الأوسط إلى الأدنى نحو (ف د م).

التاسع – من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى نحو (د ع م).

العاشر – من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى نحو (د م ع).

الحادي عشر – من الأوسط إلى الأعلى إلى الأوسط نحو (ن ع ل).

الثاني عشر – من الأوسط إلى الأدنى إلى الأوسط نحو (ن م ل)

ثم قال السبكي بعد ذكرها: " إذا تقرر هذا فاعلم أن أحسنَ هذه التراكيب وأكثرَها استعمالا ما انحدر فيه من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى، ثم ما انتقل فيه من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى، ثم من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط. وأما ما

انتقل فيه من الأدنى إلى الأوسط إلى الأعلى، وما انْتُقل فيه من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى فهما سِيَّان في الاستعمال وإن كان القياس يقتضي أن يكون أرجَحَهما ما انتُقل فيه من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى، وأقل الجميع استعمالا ما انتُقل فيه من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط"

وبأخذ عينة شملت (43) فعلاً من الأفعال الثلاثية المجردة الواردة في سورة إبراهيم وجدنا أن (11) فعلاً كان تأليفها وفق الوجه التاسع، و(9) وفق الوجه السادس، ومثلها وفق الوجه العاشر، ثم (6) وفق الوجه الثاني، و(4) وفق الأول، و(2) وفق الخامس، وواحد وفق السابع، وآخر وفق الرابع. وبذلك نلاحظ أن معظم الكلمات المستخدمة في السورة تتألف حروفها وفق الوجوه الأفصح والأكثر شيوعاً وهي:

الوجه التاسع: من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى

الوجه العاشر: من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى

الوجه السادس: من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط

الوجه الأول: الانحدارُ من المخرج الأعلى إلى الأوْسط إلى الأدنى

الوجه الثاني: الانتقالُ من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوْسط

وهذا يعني أن القرآن الكريم يستعمل الكلمات التي يتم التنقل بين مخارج حروفها وفق أحسن الوجوه وأكثرها استعمالاً، مما يجعل التنقل سلساً لا يسبب إجهاداً لأعضاء النطق.

والقرآن الكريم يسير في تأليف كلماته على سنن المقاييس الصوتية للغة العربية يراعي قواعدها ويتوخى قوانينها، فلا يجمع بين حروف الحلق في كلمة لما تسببه من عسر في النطق، ولا بين الجيم والقاف أو الكاف أو الصاد، ولا تلي فيه الراء حرف النون، ولا الزاي حرف الدال، ولا الراء حرف اللام، ولا الشين حرف اللام، ويرى الخفاجي أن (الزاي، الذال، السين) لا تجتمع في كلمة عربية الأصل لقرب مخارجها، وقد سبق وأن ذكرنا انقسام الحركات والحروف إلى شديدة ثقيلة ولينة خفيفة، وأن الشديد منها لا يجتمع إلا إذا كان في السياق ما يستدعي العنف والشدة، وأن القرآن الكريم يوظف صفات الحروف وحركاتها في التعبير عن المعنى.

ودعونا نستعرض تطبيق ما ذكرنا في بعض من آيات سورة إبراهيم، يقول تعالى:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (10) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي

İHYA ULUSLARARASI İSLAM ARAŞTIRMALARI DERGISI CILT: 3 SAYI: 2 GÜZ-2017
İHYA INTERNATIONAL JOURNAL OF ISLAMIC STUDIES VOLUME: 3 ISSUE: 2 FALL-2017

وَخَافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)

من النص السابق نرى أن المفردات قد بُنيت من حروف متباعدة المخارج تجنباً لتنافرها مثل كلمة (نَبَأُ): النون من الحروف الذلقية التي تخرج من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا، والباء تخرج من الشفتين من مقدم الفم، والهمزة من أقصى الحلق.

(قَبْلِكُمْ) القاف من أقصى اللسان قريباً من الحلق والباء من الشفتين، واللام من حافة اللسان الأمامية مع التصاقها بما يحاذيها من الأسنان، ثم الكاف من أقصى اللسان قريباً من جهة الفم ثم الميم من الشفتين.

(أَيْدِيَهُم) الهمزة من أقصى الحق، والياء من وسط اللسان، ثم الدال من ظهر اللسان مع أصول الثنايا العليا، ثم الياء مجدداً ثم الميم من الشفتين.

(مُرِيْب) الميم من الشفة، والراء من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا قريباً من الظهر، ثم الياء من وسط اللسان ثم الباء من الشفة.

(الأرض) تبدأ بالهمزة من أقصى الحلق ثم يأتي الراء من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ثم تنتهي الكلمة بحرف الضاد من وسط اللسان.

(ذُنوبِكُمْ) الذال من ظهر اللسان مع رؤوس الثنايا العليا، ثم النون من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا، ثم الباء من الشفتين، والكاف من أقصى اللسان قريباً من جهة الفم، ثم الميم الشفوية.

(بِسُلْطان) الباء شفوية، والسين من رأس اللسان مع أصول الثنايا، واللام من حافة اللسان الأمامية مع التصاقها بما يحاذيها من الأسنان، والطاء من ظهر اللسان مع أصول الثنايا العليا، ثم الألف من الجوف والنون من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا.

(قوم) القاف من أقصى اللسان قريباً من الحلق، وأما توالي حرفين قريبي المخرج (الواو والميم) فمغتفر؛ لأن اجتماع حرفين من أسرة مخرج واحد لا يعد قدحاً في فصاحة الكلمة عند أهل اللغة، ونظيره في اللغة كثير مثل: أحد، أهل، عهد، نخع، قال ابن دريد في الجمهرة: " وَاعْلَم أَنه لَا يكَاد يَجِيء فِي الْكَلَام ثَلَاثَة أحرف من جنس وَاحِد فِي كلمة وَاحِدَة لصعوبة ذَلِك عَلَيْهِم، وأصعبها حُرُوف الْحلق، فَأَما حرفان فقد اجْتمعَا فِي كلمة مثل أخر "[50] وكونها من الأحرف الشفوية يجعلها أكثر قبولاً؛ لأنها أخف الحروف وأرقها، ثم إن مجيء وسط الكلمة ساكناً كان له أيضاً أثر في تيسير الانتقال بين الحروف.

هذا نموذج من الكلمات الواردة في النص القرآني نستدل من خلالها على خفة الكلمة القرآنية بتناغم وانسجام حروفها، وخلوصها من التنافر الحاصل عن تقارب المخارج، وذلك لأن الكلمة المتباعدة المخارج تسمح للناطق أن يأخذ مهلة وأناة عند أدائها الصوتي لما بين المخرج والمخرج التالي من الفسحة والبعد، فتستقر الحروف في مواضعها، بخلاف الكلمة المتقاربة

[50] ابن دريد، جمهرة اللغة:46/1

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

المخارج فإن اللسان عند نطقها لا يكاد يتخلص من مخرج إلا ووقع في الآخر الذي يليه لقرب ما بينهما، فتأتي حروف الكلمة قلقة غير مستقرة في أماكنها

والملاحظ في المفردات التي يزيد عدد حروفها على أربع دخول أحد حروف الذلاقة أو الشفة في تركيبها لما تحمله هذه الحروف للكلمة من العذوبة والرشاقة، ولك أن تنتقي من مفردات النص السابق ما تشاء دليلاً على ذلك من مثل: (يَعْلَمُهُم) التي تضمنت حرفي اللام والميم، و(البيّنات) التي دخلها الباء والنون، وفي كلمة (أفواههم) نجد الفاء والميم، كذلك النون المكررة في (تَدْعونَنا)، والفاء واللام في (ليغفر) والنون والباء واللام في (ولنَصبِرَنَّ) وهكذا (هدانا، تريدون، مثلنا، يعبد، مسمّى، المؤمنون ..) وسائر الألفاظ الأخرى.

وإذا ندر وخلت المفردة من هذه الحروف دخلها أحد حروف المد أو حرف السين ذو الجرس اللين كما في مفردة (يسيغه) فإنها حين بنيت من حروف مصمتة جيء بالسين لتليين نطقها، وكذلك دور حرف المد في ترقيق لفظة (يأتيه) وتليينها.

C. دور الحركات في فصاحة المفردة:

وإذا انتقلنا إلى أثر الحركات في فصاحة الكلمة نجد أن أهل اللغة قد قسموا الحركات إلى خفيفة وثقيلة، فالضمة أثقلها تليها الكسرة ثم الفتحة، وقد مر بنا أنهم عدوا توالي الحركات الشديدة معسراً في النطق وثقيلاً على السمع، وبتتبع كلمات سورة إبراهيم كنموذج نجد أن حركات الحروف تشكل بأدائها وتناغمها موجة صوتية تريح اللسان وتطرب الأذن، فلا يكاد القارئ يشعر بوقع الانتقال بين حروف الكلمة أثناء ركوبه الموجة الموسيقية التي تصعد به حيناً وتنزل به أخرى في خفة وسلالة، ولنأخذ بعض المفردات الواردة في سورة إبراهيم كتطبيق على ما ذكرنا.

فنرى توالي حركة الفتحة الخفيفة في (خَلَقَ)، (ضَرَبَ)، (القَمَرَ)، (البَلَدَ)، (وَهَبَ)، (السَّمَاوات) و(فلْيَتَوَكَّل)، (وَلَنَصْبِرَنَّ)، (يَتَجَرَّعُه)، (بَشَر)، (كَرَمَاد)، (يَشَاء)، (أَجَل) .. وغيرها

ونجد أثر السكون في تخفيف وقع توالي الحركات الثقيلة من خلال المقاطع الصوتية، فالسكون يقسم الكلمة إلى مقاطع تسهل على القارئ تلفّظ الكلمة حيث تغدو كأكثر من كلمة عند النطق بها. فرغم طول كلمات (آذيتمونا، لنخرجنهم، ولنسكننكم، واستفتحوا) نراها تجري خفيفة على أسلات اللسان لانقسامها بالسكون إلى مقاطع صوتية فـ (آذيتمونا) تقرأ على أربع دفعات (أَأَا/ ذَيْ/تُمُو/نَا)، و كلمة (لنخرجنكم) تقرأ على ثلاثة دفعات (لَنُخْ/رِجَنْ/نَكُم)، (ولنسكننكم) تقسم في التلاوة إلى (وَلَنُسْ/كِنَنْ/نَكُم) وكلمة (واستفتحوا) تقرأ (وَاسْ/تَفْ/تَحُو) وهذا التقطيع يوفر الجهد العضلي الذي تبذله أعضاء النطق لما يوفره السكون من مهلة ترتاح فيها هذه الأعضاء ثم تعاود العمل منتقلة إلى المقطع التالي، أضف إلى ذلك ما يؤديه السكون من دور في تخفيف الانتقال بين الحروف المختلفة الحركات، فالعرب تكره الخروج والانتقال من الكسر إلى الضم ولكننا لا نشعر بهذا الثقل مع وجود فاصل السكون كما في كلمة (أُرْسِلْتُم) حيث نرى السكون قد مهدت للّسان الخروج من الضمة الثقيلة والتّدرّج إلى الكسرة الأقل ثقلاً، ثم عادت لتمهد له كذلك التدرج نحو الأثقل فيما يشبه الموجه في ارتفاعها وانخفاضها، وفي كلمة (البَحْرِ) كان الانتقال من الفتحة الخفيفة إلى الكسرة الثقيلة سلساً لتخلل الكلمة بالسكون الممهدة للانتقال. والأمر نفسه نجده في المفردات الآتية من سورة إبراهيم (المَوْتُ)، (مَاْءٍ)، (يَوْمٍ)، (خَلْقٍ)، (شَيْءٍ)، (قَبْلُ)، (فَوْقِ)، (بَيْعٌ)، (رِزْقاً)، (البَحْرِ)، (غَيْرِ)، (زَرْعٍ)، (عِنْدَ)، (وَعْدِه) وغيرها..

İHYA ULUSLARARASI İSLAM ARAŞTIRMALARI DERGISI CILT: 3 SAYI: 2 GÜZ-2017
İHYA INTERNATIONAL JOURNAL OF ISLAMIC STUDIES VOLUME: 3 ISSUE: 2 FALL-2017

ويلاحظ عدم ورود الحركات الثقيلة متتابعة في النص القرآني إلا عندما يستدعي السياق الشدة والعنف أو التعنيف أو التأكيد، وعندها تؤدي هذه الشدة دوراً في التعبير عن المعنى على سبيل الإيحاء، وتكون ضرورة ملحة لا يستغنى عنها كما في كلمة (رُسُلُهُم) التي وردت بثلاث ضمات متتالية أحد عشر مرّة في القرآن الكريم؛ ثلاث منها في سورة إبراهيم هي:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (إبراهيم/9)

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (إبراهيم/11)

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (إبراهيم/11)

بدراسة السياقات التي وردت فيها المفردة نجد أن المحور الذي تدور حوله الآيات الثلاثة هو الحوار الذي دار بين الرسل والكافرين من أقوامهم بسبب اعتراض هؤلاء المعاندين على نبوة الرسل، وتصف الجهد الذي بذله هؤلاء الرسل في سبيل إقناعهم وردهم إلى الحق. وأنت ترى أن السياق يستدعي التأكيد والتقرير حيناً، والتعنيف والتوبيخ والشدة حيناً آخر، لذا كانت الضمة الثقيلة المتوالية على أربعة أحرف مناسبة لهذا المقام لأنها تزيد معنى الآيات بياناً.

منهج اصطفاء المفردة القرآنية

لما كانت اللغة العربية من أوسع اللغات وأغناها بالمفردات والأساليب فقد كانت العرب تتخير من ألفاظها ما يكون مطابقاً للمعنى معبراً عما يجول في الذهن أدق تعبير، وكلما كانت الكلمة أنسب للموضوع كان الكلام أبلغ وأجمل. فقد روي أن رجلا أنشد ابن هرمة قوله[51]:

بالله ربك إن دخلت فقل لها هذا ابن هرمة قائما بالباب

"فقال: ما كذا قلت؛ أكنت أتصدق؟ قال: فقاعدا. قال: كنت أبول؟ قال: فماذا؟ قال: واقفا. ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى". ولعلّ ابن هرمة يعني من ذلك أن القيام يقتضي الدوام والثبوت بخلاف الوقوف، تقول: وقف الحاج بعرفة، ولا تقول: قام.

وعندما نزل القرآن الكريم بلغة العرب سبقهم في هذا المضمار، وأظهر عجزهم في اللحاق به في موضوع الحذاقة في انتقاء الكلم، والمهارة في التعبير عن المراد؛ بل أعطاهم دروساً بهذا الخصوص حين أمرهم بتوخي الحذر والدّقة في التعبير، ونبههم إلى ضرورة استعمال اللفظة المناسبة في محلها المناسب، وتجنب إيراد لفظ مكان آخر فتضل المعاني بين الاحتمالات وتتوه الأغراض والمقاصد في ظلال الشك والتمويه.

[51] ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين: 68

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

فحين قدمت بنو أسد من الأعراب إلى المدينة المنورة في سنة جدبة، وأظهروا الشهادة، يريدون الصدقة ويمنون على النبي صلى الله عليه وسلم بقولهم "آمنا" نبههم القرآن الكريم إلى التزام الدقة في التعبير، ووجههم إلى استعمال "أسلمنا" بدلاً من "آمنا" فقال تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (الحجرات/14) فإن بين الكلمتين فرقاً كبيراً لأن " ما يَكُونُ مِنَ الإقْرارِ بِاللِسانِ، مِن غَيْرِ مُواطَأةِ القَلْبِ، فَهو إسْلامٌ، وما واطَأ فِيهِ القَلْبُ اللِسانَ فَهو إيمانٌ[52] " وكلمة "إسلام" هي التي تناسب حال هؤلاء الأعراب. ونتلمس عالي أسلوب القرآن الكريم في إتيانه بأداة الاستدراك (لكن) التي هوَّنت من وطأة نفي الإيمان على قلوب هؤلاء القوم، ولطفت العبارة، وسترت غلظة التعنيف الذي بدأت به الآية، فبينت سبب ذلك، وأوضحت بقوله (وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) ثم رغبتهم بالإيمان وطاعة الرسول والعمل الصالح؛ لأنها سبيل رحم الله ومغفرته.

وقد بلغت مهارة القرآن في اصطفاء ألفاظه حداً جعل القبائل العربية تتفاخر بما في ألفاظها من شبه بألفاظ القرآن الكريم، وتتباهى باستعماله لكلمات من لهجاتها لما في ذلك من إشارة إلى فصاحة هذه الكلمات وتميز المتكلمين بها. "قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة. فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم، أنتم تسمون (القدر) (بُرمة) وتجمعون البرمة على (برام)، ونحن نقول (قِدْر) ونجمعها على (قُدُور)، وقال الله عز وجل: (وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ) (سبأ/13)، وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت (عُلَيَّة)، وتجمعون هذا الاسم على (علالي)، ونحن نسميه (غُرفة) ونجمعها على (غرفات) و(غُرَف)، وقال الله تبارك وتعالى: (غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ) (الزمر/20)، وقال: (وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ) (سبأ/37)، وأنتم تسمون الطلع (الكافور) و(الإغْرِيض) ونحن نسميه الطَّلع). وقال الله تبارك وتعالى: (وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ) (الشعراء/148). فعدّ عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا"[53]

ألفاظ القرآن الكريم هي زبدة ما في كلام العرب، فالله تعالى قد مخّض اللغة العربية وألقى زبدتها في كتابه العزيز، وهي كما قال الراغب الأصفهاني: "لب كلام العرب وواسطته وكرائمه.. وما عداها من الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها، هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة"[54]

ولذا تجد الكلمة القرآنية متمكنة في مكانها تؤدي كامل ما يطلب منها لإفادة المعنى بجرسها وإيحائها وصفات حروفها وحركاتها، بحيث لا يمكن الاستعاضة عنها بغيرها مهما اتسعت دلالة البديل " وقد أجاد ابن عطية في وصفها حين قال: لو نزعت منه — أي القرآن الكريم – لفظة، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد" [55]، وهو ما عناه الخطابي بقوله: "إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه

[52] أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 358/3

[53] الجاحظ، البيان والتبيين: 40/1

[54] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: 54

[55] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 52/1

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

سقوط البلاغة، وذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح،·· والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك"[56]

وقد روى أن قارئاً قرأ قوله تعالى: (فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة/209) فقال: "غفور رحيم" فسمعه أعرابي فأنكره، ولم يكن هذا الأعرابي قد قرأ القرآن· وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه[57].

لقد أدرك الأعرابي – بحسه اللغوي المرهف السليم– أن البلاغة الرفيعة تقتضي أن يكون اللفظ القرآني كما ورد، وعندما أخطأ القارئ فغيره أحدث في الكلام خللاً فطنت إليه الأذن المدربة.

فالناس قد يجيزون استعمال لفظ مكان آخر ولا يعبؤون بالفروق اللغوية، لكن هذا الأمر محال في حق كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يقول الجاحظ: " قد يستخفُّ الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السّغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث"[58]

وإذا بحثنا عن مصداق ما سبق في سورة إبراهيم نجد الكثير من الأمثلة والشواهد التي تبرهن على براعة القرآن الكريم في تخير ألفاظه نسوق منها ما يلي:

قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) (إبراهيم/6)

نريد أن نقف من هذه الآية على وجه اختيار ثلاث كلمات هي (أنجاكم) و (يذبحون)، و (نساءكم).

فقد عبر البيان الإلهي عن نعمته على بني إسرائيل عندما أنقذهم من ظلم فرعون وتسلط ملئه وانتشلهم من واقع الذل الذي كانوا غارقين فيه فاستعمل كلمة "أنجاكم" من الفعل الثلاثي المزيد بحرف (أفعل)، وهذا الفعل نفسه قد تكرر في آية أخرى ولكن بصيغة أخرى هي "نجّيناكم" من الفعل الثلاثي المزيد (فعَّل) فقال تعالى في سورة البقرة: (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) (البقرة/49) فما السر في هذا الاختلاف رغم اتحاد القصة وتشابه الآيتين؟

[56] الخطابي، بيان إعجاز القرآن: 27

[57] ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 347/3

[58] الجاحظ، البيان والتبيين: 41/1

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

إن ما تؤديه صيغة الفعل (فعَّل) يختلف عما يفيده (أفعل) إذ الأولى تعني المبالغة والتكثير غالباً[59] وهو ما يستغرق وقتاً ويستدعي التلبث والتمهل مثل (كسَّر، قطَّعَ، علَّمَ)، فالفعل (علَّم) مثلاً يتطلب التريث والتلبث مع طول الفترة الزمنية التي يحتاجها إذا ما قارناه بصيغة الفعل (أعلم) التي تعني الإخبار الذي لا يكون معه تمهل ولا لبث.

والله سبحانه وتعالى استعمل الفعل (أنجى) في آية سورة إبراهيم لأن حالة العذاب التي كان يعيشها بنو إسرائيل لم تكن تحتمل التأخير أو التريث، فأصناف العذاب كانت متعددة ومتنوعة، دل على ذلك الفصل بين (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) و (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) بـ(الواو) التي تعني المغايرة بين الأمرين فسوء العذاب عذاب آخر أضيف إلى ذبح الأبناء واستحياء النساء.

الآية تصور مشهداً مروعاً ومفزعاً من العنف والتعذيب يستدعي تدخلاً سريعاً فكان التعبير بالفعل (أنجى)، أما في سورة البقرة فتصوير المشهد مختلف رغم اتحاد القصة والشخصيات، والتعبير يكون وفق المنظار الذي يشاهد به، فقد فسر قوله (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) على أنها بدل من (سوء العذاب) فأصناف التعذيب وأنواعه أقل مما هو في مشهد سورة إبراهيم لذا لزم الأمر التريث والتمهل في الإنجاء ليكون ذلك سبيلاً لاستئصال شر فرعون وإنهاء معاناة بني إسرائيل بشكل كلي.

والمفردة الثانية التي أود الوقوف عندها هي قوله (يُذَبِّحون) التي جاءت هي الأخرى بصيغة (فعَّل) وهناك قراءة بـ "يذبَحون" دون تشديد الباء لكنها شاذة، والقراءة المجمع عليها بالتشديد وهي الأقرب لأنها للتكثير والمبالغة بخلاف الأخرى التي تصلح للقليل والكثير، وفرعون قد أكثر القتل والفتك في بني إسرائيل فكانت القراءة المتواترة أولى وأنسب، فالبيان الإلهي دقيق في انتقاء ألفاظه، وبمقارنة هذه الآية بمثيلتها في سورة البقرة نلاحظ أن واواً زيدت في هذه الآية في قوله تعالى (ويذبحون أبناءكم) عطفاً على (سوء العذاب) مما جعل ذبح الأبناء نوعاً آخر من العذاب الذي كان يلقاه بنو إسرائيل على يد زبانية فرعون، فيما خلت آية سورة البقرة من هذه الواو مما جعل سوء العذاب مفسراً بذبح الأبناء، فما وجه إضافة هذه الواو وماذا تزيد في المعنى وماذا تفيد؟

إن النظرة المتأنية في سياق الآتين تكشف لنا هذا السر وتزيدنا إيماناً بسمو بيان القرآن الكريم وعلو بلاغته، فالآية هنا في سورة إبراهيم سبقها أمر من الله تعالى لنبيه موسى بأن يُذَكِّر بني إسرائيل بـ(أيام الله) في قوله تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) والتذكير بأيام الله لا يحصل إلا بتعداد النعم، فجاءت الواو لتجعل سوء العذاب نوعاً أو أنواعاً أخرى من العذاب الذي أنقذ الله تعالى بني إسرائيل منه، فتعددت نعم الله بتعدد أصناف العذاب الذي خلصهم منه.

أما في سورة البقرة فلَم يرِد الْأمر إِلَّا بتذكِيرِ جنسِ النِّعمة وهي قَوْلُهُ: (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) فسواء كان المراد من سوء العذاب هو الذبح أو غيره كان تذكير جنس النعمة حاصلاً.[60]

[59] ينظر: رضي الدين الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب: 92/1

[60] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 507/3

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

و(الذّبح) لغة هو "قطع الحلقوم من باطن"[61] وهذا يعني أن القتل كان بقطع الشرايين وإراقة الدم دون غيره من وسائل إزهاق الروح، غير أنه قد ورد في سورة الأعراف بلفظ (القتل) في قوله تعالى (وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) والقتل عام يشمل إراقة الدم بالذبح وغيره كالخنق والإغراق ..

والسبب في الاختلاف أن فرعون قد انتقم من بني إسرائيل مرتين[62] الأولى عند انتصاره على الهكسوس فصب جام غضبه على بني إسرائيل وقتلهم بشتى الوسائل، وهدم بيوتهم وأحرقها فكان التعبير بـ (يقتلون). وأما مسألة الذبح فكان سببها أن فرعون رأى في منامه ناراً تخرج من بيت المقدس تحرق المصريين وتستثني بني إسرائيل، وعندما طلب من كهانه تفسير الرؤيا قالوا له: إن نهاية ملكه ستكون على يد ولد من ذرية بني إسرائيل، فأمر فرعون القوابل بذبح كل مولود ذكر من ذرية بني إسرائيل.

إذن عندما تعلق الأمر بزوال الملك طلب فرعون من زبانيته إزهاق أرواح الأطفال بالذبح الذي تنعدم معه فرص النجاة بخلاف الوسائل الأخرى التي قد تخطئ ضحيتها أو قد لا تكون مميتة على الفور.

وبالعودة من جديد إلى نفس الآية وسبب اختيار كلمة (يسومونكم) نجد أن البيان الإلهي قد انتقاها بكل عناية لتعبر عن معنى يعجز عنه غيرها من الألفاظ. فأصل كلمة (سام) (يسوم) (سوماً) هو الذهاب في طلب الشيء واستعملها العرب في قولهم "سامَه خُطَّةَ خَسفٍ" بمعنى أولاه ظلماً[63]، ومنه قول الشاعر عمرو بن كلثوم:

إِذَا مَا المِلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفَاً أَبَيْنَــا أَنْ نُقِـرَّ الـذُّلَّ فِيـنَا

أي إذا أذاق الملك الناس العذاب والهوان والذل. وقيل إن (السوم) مأخوذ من سائمة الغنم أي إدامتها، من سام الغنم يعني أدام رعيها في المرعى[64]، وهذا يعني أن الكلمة تحمل معنيين متكاملين وكلاهما مقصود: إيراد العذاب وإدامته. ولما كان العذاب الذي يتعرض له بنو إسرائيل على يد آل فرعون عذاباً شديداً ومستمراً لا يعرف الانقطاع ولا الانتهاء رجح البيان الإلهي كلمة (السوم) على غيرها، فكان معنى (يسومونكم سوء العذاب): يذيقونكم ويولونكم سوء العذاب ويديمونه عليكم، فهو عذاب شديد ومستمر غير منقطع، وكأن الله تعالى يقول لهم: " واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون حال ما كانوا يديمون عذابكم، من سام الماشية أي جعلها سائمة ترعى دائماً، وكأن العذاب كان هو الغذاء الدائم الذي يطعمونهم إياه"[65] وهنا نلاحظ تميز اللفظ (سام) على غيره ممن قد يجعل مرادفاً له، إذ لو وضعنا محلها (يوردونكم)، أو (يذيقونكم) لفقدت الآية معنى استمرارية التعذيب وديمومته التي يفيدها لفظ (السوم).

[61] ابن سيده، المخصص، مادة (ذبح)، وينظر: الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: مادة (ذبح)

[62] ينظر: متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي- الخواطر: 327/1

[63] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 79/1، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 258/1،

[64] ينظر: ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة: 485/1، مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: مادة (س و م)

[65] سيد قطب، في ظلال القرآن: 70/1

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

ونلحظ أن البيان الإلهي عبر عن الأطفال الإناث بـــ(النساء) رغم أن المألوف من أساليب الكلام أن يأتي في مقابل الأبناء بلفظ البنات، أو يأتي بلفظ (الرجال) في مقابل (النساء) فما وجه ذلك وما السر في اختيار البيان الإلهي لهاتين اللفظتين؟

قال أهل العلم إن الثابت أن فرعون كان يذبح مواليد بني إسرائيل الذكور أي أطفالهم فور ولادتهم للسبب الذي ذكرناه فكان التعبير بـ (أبنائكم) مطابقاً للمعنى كونه يشير إلى معنى البنوة الذي يشعر بحالة الطفولة والصغر وإن كان يدل على الكبير أيضاً، ولو خصصناه بالبالغين " لَمْ يَكُنْ لِإِلْقَاءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّابُوتِ حَالَ صِغَرِهِ مَعْنًى"[66] وأما تسمية المواليد الإناث بـ (النساء) فهو باعتبار ما سيؤلن إليه بعد نجاتهن من الذبح الذي نال الذكور على يد فرعون وعصبته. أما الذكور فلم يتجاوزا مرحلة الطفولة كي يطلق عليهم اسم الرجال. وفي استعمال البيان الإلهي للفظ النساء إشارة إلى نعمة الله تعالى على بني إسرائيل حين أنقذ بناتهم الصغار مما كان ينتظرهن من مهانة وإذلال وهتك عرض، ففرعون قد استحياهن لذلك.

في قوله تعالى: (رَّبَّنَا إِنِّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (إبراهيم/37)

تتضمن الآية الكريمة تضرع سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى ربه بالدعاء لذريته التي تركها عند بيت الله المحرم للعبادة وإقامة شعائر الدين، وكان من دعائه (فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم) فاختار البيان الإلهي التعبير ب(أفئدة) وهي جمع (فؤاد) وقدمها على مرادفتها كلمة (قلب)، وللمفسرين في تفسير (أفئدة) قولان: قال الماوردي: "في (أفئدة) وجهان: أحدهما: أن الأفئدة جمع فؤاد وهي القلوب، وقد يعبر عن القلب بالفؤاد، قال الشاعر:

وإنّ فؤاداً قادَني بصبابةٍ إليك على طُولِ الهوَى لصَبورُ

الثاني: أن الأفئدة جمع وفد، فكأنه قال: فاجعل وفوداً من الأمم تهوي إليهم"[67] ورغم ترادف مفردتي (القلب) و(الفؤاد) في عرف الناس غير أن بينهما فرقاً دقيقاً في الاستعمال القرآني، يدل على ذلك اجتماعهما في آية واحدة بمعنيين مختلفين في قوله تعالى: (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (القصص/10)، فأم موسى قد انفطر قلبها وتصدع وجدانها حين سمعت بوقوع فلذة كبدها بيد فرعون، ونالت الصدمة من أحاسيسها، ففزعت وخافت خوفاً شديداً جعلها تنسى وعد الله لها بإعادته إلى صدرها وفق الخطة المرسومة، فكان تعبير القرآن عن مركز ذلك الشعور بـ (الفؤاد)، ولكن ما لبث أن ربط الله تعالى على قلبها بتقويته وإيناسه، وألهمها الصبر ورباطة الجأش فمنع أحاسيسها ومشاعرها كأم من إفساد ما أراده الله تعالى، فكان التعبير بـ (القلب) وهذا يعني أن للفؤاد استخداماً مختلفاً عن القلب.

[66] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب:506/3

[67] الماوردي، النكت والعيون – تفسير الماوردي: 138/3

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

قال الراغب الأصفهاني: " ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة "[68]، وأما الفؤاد فهو من (التَّفؤُّد)[69]، وهو التَّوقُّد، فالفؤاد كالقلب لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التَّفؤُّد، أي: التَّوقُّد[70]، ومعنى التوقد أقرب للأحاسيس وأميل للوجدان والشعور.

ولما كان مراد إبراهيم من دعائه أن يوجه الله تعالى عناية أناس ومشاعرهم بالحنان والعطف تجاه ذريته وقع الاختيار على كلمة (فؤاد)، قال ابن عاشور: " والمراد فاجعل أناسا يهوون إليهم، فأقحم لفظ الأفئدة لإرادة أن يكون مسير الناس إليهم عن شوق ومحبة حتى كأن المسرع هو الفؤاد لا الجسد"[71]

وتتجلى دقة البيان الإلهي في هذه الآية كذلك في اصطفاء كلمة (تهوي) للدلالة على الميل والنزوع إلى الشيء شوقاً وتوداداً وتحنناً، ومعنى الفعل (هوى) لغة: السقوط والهبوط، فتقول: "هَوَيتُ أَهْوِي هُوِيّاً، إذا سقطتَ من عُلْوٍ إِلَى أَسْفَل، وَكَذَلِكَ الهَوِيُّ فِي السَّير إِذا مضى"[72]

لكن المفردة تحمل معاني وإشارات أخرى تجعلها أولى بالمقام من غيرها منها: إفادتها (الإسراع في السعي) وهو مأخوذ من قولهم: النَّاقَةُ تَهْوِي هَوْيًا فَهِيَ هَاوِيَةٌ إِذَا عَدَتْ عَدْوًا شَدِيدًا، كَأَنَّهَا تَهْوِي فِي بِئْرٍ، أو أن المعنَى: تَجِيءُ إِلَيْهِمْ أَوْ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ[73]، قال ابن عاشور: " وتهوي مضارع هوى: سقط. وأطلق هنا على الإسراع في المشي استعارة، كقول امرئ القيس:

..... كجلمود صخر حطّه السيل من علِ

ولذلك عدي باللام دون على، والإسراع: جعل كناية عن المحبة والشوق إلى زيارتهم"[74]

إذن فالمراد بكلمة (تهوي) تقصدهم مسرعة بشوق ومحبة ولو قدرنا محلها غيرها مما يُظَنُّ مرادفاً لها كـ (تَحِنُّ) مثلاً لما أدت المعنى المنشود لأن الحنين قد يوصف به من هو مقيم في مكانه، أما الهويّ فـ "يفيد انزعاج الهاوي من مستقره"[75] وانبعاثه نحو مكان آخر.

والهويّ كذلك يختلف عن (الميل) وإن أفاد معناه، إذ يعني الهويّ السقوط دون إرادة، فلا يملك الشيء الذي يهوي لنفسه تحكماً ولا اختياراً، وهذه الدعوة من سيدنا إبراهيم عليه السلام بهذه الصيغة هي التي جعلت الناس مذ ذاك الزمن وحتى اليوم تنجذب إلى زيارة البيت الحرام وتندفع نحوه يشدها إليه حنين وشوق لا تملك له دفعاً ولا منعاً، يصور لنا سيد قطب

[68] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: 681/1
[69] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (فأد)
[70] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: 646
[71] ابن عاشور، التحرير والتنوير:241/13
[72] الأزهري، تهذيب اللغة، باب (الهاء والميم): 258/6
[73] ينظر: الشوكاني، فتح القدير:135/3
[74] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 241/13
[75] الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 183/2

جمالية هذا التعبير بقوله " وفي التعبير رقة ورفرفة، تصور القلوب رفافة مجنحة، وهي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب. إنه تعبير نديّ يندّي الجدب برقة القلوب"[76]

قوله تعالى: (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ) (إبراهيم/17) مفردة (يجرَّع): أصلها (جَرَع)، تقول: جرع الدواء، تريد بذلك بلعه دفعة واحدة،

قال الخليل الفراهيدي: "وكلّ شيء يبلعه الحلق فهو اجتراع"[77] وهو من الثلاثي المزيد بحرفين (تفعَّل – يتفعَّل)، ومن المعاني التي تؤديها هذه الصيغة: أولاً– المطاوعة، فتقول جرعته فتجرَّعه أي؛ طاوع الفعل وانصاع له، والمعنى الثاني– التكلُّف أي؛ يتكلف بلع هذا الماء وجرعه رغم ما هو عليه من النتانة والقذارة والحرارة، وهو ما ذهب إليه الزمخشري والبيضاوي وأبو حيان وابن عاشور[78]. والثالث– التدرج الذي يستدعي مهلة بين كل جرعة أي؛ احتساء المشروب جرعة جرعة بشكل مستمر، وهو قول الفخر الرازي والألوسي[79].

وقوله (يسيغه) من "ساغَ الشرابُ يَسوغُ سَوْغاً، أي سهُل مدخَلُه في الحَلْق"[80] بمعنى جرى في الحلق وانحدر دون عائق مع قبول نفس واستطابة المشروب، ولكن البيان الإلهي جاء بفعل المقاربة المنفي (لا يكاد) للمبالغة في نفي الإساغة عن هذا الكافر، فهو لا يقارب أن يسيغة فضلاً عن الإساغة على رأي بعض المفسرين، واستدلوا بنظيرها في قوله تعالى: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) (النور/40) فالرؤية هنا منتفية لكونه لم يقرب من الرؤية؛ لأنها بعيدة عنه فكيف له رؤيتها! فتكون إساغة الشراب هنا كذلك غير ممكنة. ونقل الرازي قولاً آخر في تفسير ذلك جعل نفي الفعل (كاد) إثباتاً وإثباته نفياً، فقوله تعالى: (ولا يكاد يسيغة) "أي ويسيغه بعد إبطاء؛ لأن العرب تقول: ما كِدْتُ أقوم، أي قمت بعد إبطاء قال تعالى: (فذبحوها وما كادوا يفعلون) (البقرة/71) يعني فعلوا بعد إبطاء "[81] وكذلك في قوله تعالى: (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ) (الحج/20) دليل على أنه يدخل بطونهم.

وأياً كان المراد فإن استخدام القرآن الكريم لمفردات (يتجرعه)، و(لا يكاد)، (يسيغه) له دلالة قوية في تصوير مشهد ذلك الكافر الذي تلفح النار الملتهبة وجهه فلا يجد ما يتقي به لظاها فيظمأ ويستغيث، فيعرض عليه الصديد والغساق وهو القيح الذي سال من جلود أهل النار، فيحاول شربه ويتكلف احتساءه جرعة إثر جرعة حال من يستجير من الرمضاء

[76] سيد قطب، في ظلال القرآن: 2110/4

[77] الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين: باب العين والجيم والراء معهما.

[78] ينظر: الزمخشري، الكشاف: 546/2، البيضاوي، أنوار التنزيل: 195/3، أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 419/6، ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/13

[79] ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 80/19، الألوسي، روح المعاني: 191/7

[80] ابن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، باب سوغ

[81] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 80/19

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

بالنار، فيغصّ به رغم تكلفه كما ورد في الحديث: "يُقرّب إليه فيتكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره"[82]

وإذا تأملنا لفظة (يتجرعه) نجدها تؤدي معناها حتى بجرس حروفها، فالتاء الشديدة، ثم الجيم الجهرية الشديدة تصف قسوة ذلك الصديد ووقعه الشديد المؤلم على حلق محتسيه، ثم تأتي الراء المشددة بصفتها التكريرية لتوحي بتكرر محاولة الكافر بلع الشراب المقدم له رغم مرارته وحرارته فيغص به كل مرة وهو يتكلفه، وربما نزل شيء منه إلى الجوف عبر البلعوم الذي يشير إليه حرف العين مع مخرجه من وسط الحلق، ليستقر في البطن مع حرف الهاء الذي يلي العين جهة الجوف، فـ (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ). ونلاحظ أن ترتيب مخارج حروف الكلمة متناسبة تماماً مع اتجاه انحدار الصديد وتدرجه في الفم ثم إلى الجوف مروراً بالحلق إذ تبدأ الكلمة بالتاء من رؤوس الثنايا العلوية، ثم الجيم من وسط اللسان، ثم تصور الراء المشددة المكررة حالة الغصة وتكلف الجرع وتردد الصديد في الفم قبل أن يتابع نزوله إلى الحلق عند العين، ثم حرف الهاء الذي يلي العين جهة الجوف.

وإن كان الفعل (احتسى) يحمل نفس الدلالة المعجمية لكلمة (تجرع) في إفادة تناول الشراب فإنه لا يسد مسدَّ الفعل (تجرع) في سياق الآية الكريمة، لأن صيغة (احتسى) من الثلاثي المزيد بحرفين على وزن (افتعل) وهذه الصيغة تفيد المشاركة والمطاوعة، ولا تفيد التكلف الذي يشكل محور المعاني التي أفادها الفعل (تجرع) إضافة إلى جرس الكلمة وحروفها اللينة التي لا تطابق مقتضى حال الكافر وعذابه. فالحاء من الحروف الاحتكاكية الرخوة التي يسمح بجريان الهواء عند النطق بها، وكذلك حرف السين اللين المهموس والألف، فالكلمة أقرب إلى استساغة الشراب وجريانه في الحلق بيسر منها إلى معنى العذاب والغصة التي تنتاب الكافر.

وتظهر براعة البيان القرآني كذلك في انتقائه كلمة (الموت) للتعبير عن العذاب المطبق الذي ما بعده عذاب والوجع الذي لا يضاهيه وجع، ولو بحثنا في معاجم اللغة عن كلمة أقسى وأعنف في الدلالة على هذا اللون من العذاب لتعذر علينا ذلك، إذ لو استُعمل لفظ (العذاب) محلها لكان نوعاً مألوفاً من العذاب، أما كلمة (الموت) فقد خرجت بالعذاب عن المألوف في وجعلته يحمل صفات الموت نفسه وشدته ولكن من غير انتهاء ودون أن يختص بعضو دون آخر فهو يأتيه (مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ).

وتبرز كذلك براعة البيان الإلهي في انتقاء مفرداته واستخدمها في تمييزه بين لفظ (نعمة) و(نعيم) في الاستعمال القرآني، فالأولى يستخدمها للدلالة على ما يمنُّ به في الحياة الدنيا على عباده من وجوه الإحسان المادي والمعنوي، وأما الثانية فقد اطرد استعمالها فيما أنعم الله به على عباده المقربين في الآخرة على وجه الخصوص دون غيرها، النعمة للدنيا والنعيم للآخرة، فنجد النعمة في قوله تعالى: (اذْكُرُواْ نعْمَتِيَ التِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) (البقرة/40)

((رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التِي أَنْعَمْتَ عَليَّ) (النمل/19)

(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا) (المزمل/11)

[82] أخرجه الحاكم في كتاب التفسير، في تفسير سورة إبراهيم برقم: 3339، وقال: " هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ"، وأحمد في مسند أبي أمامة الباهلي، برقم: 22285، والترمذي في باب ما جاء في صفة شراب أهل النار برقم: 2583، وقال عنه: هذا حديث غريب.

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

((وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) (لقمان/20)

في حين نجد تعلق النعيم بالأخرة في قوله تعالى:

((وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ) (التوبة/21)

((أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ) (المعارج/38)

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ) (الانفطار/13)

وفي سورة إبراهيم تكرر ورود لفظ (نعمة) ثلاث مرات كلها للدلالة على إحسان الله تعالى وعطائه في الدنيا، ففي قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) فُسِّرَت النعمة بما تلاها في قوله تعالى: (إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) إذ تجلت نعمة الله على بني إسرائيل في الدنيا بإنجائهم من تعذيب آل فرعون لهم المتمثل بذبح أبنائهم وإذلالهم واستباحة أعراض نسائهم. وجاء لفظ النعمة في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) (إبراهيم/28) وكان المراد بهؤلاء كفار قريش؛ لما أنعم الله عليهم برسوله وكتابه ليخرجهم من كفرهم وضلالهم إلى نور الهداية والإيمان اختاروا الكفر على الإيمان وبدلوا هذه النعمة جحوداً بها وإعراضاً عنها فكانوا السبب في هلاك قومهم[83].

وأما الموضع الثالث الذي وردت فيه النعمة فقوله تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (إبراهيم/34) جاءت بعد أن عدد الباري عز وجل في الآية السابقة عليها بعضاً من نعمه على خلقه في الدنيا كخلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء وإخراج الثمار وتسخير الشمس والقمر والليل والنهار وغيرها. فكان المراد بالنعمة في الآية الكريمة النِّعم التي أسبغها الله على عباده في الدنيا لا الآخرة جرياً على عرف البيان الإلهي في استعمالها.

النتائج

توصل الباحث في نهاية هذا البحث إلى النتائج الآتية:

المفردة القرآنية بفصاحتها عنصر مهم وفعال في إظهار معجزة القرآن اللغوية وتفوقه البلاغي على غيره من النظوم.

اختلف علماء البيان في الضوابط والشروط الواجب توفرها في المفردة لتحظى بوصف الفصاحة، فذكر ابن سنان الخفاجي ثمانية شروط لفصاحة المفردة منها تباعد مخارج الحروف، والتأليف الخاص، وسلامة المفردة من الغرابة، وترفعها عن مبتذل كلام العامة، وجريها على القياس اللغوي.. ثم جاء ابن الأثير بعده فرد بعضها وقبل بالآخر، مضيفاً إليها قصر جذر المفردة من حيث عدد الحروف، وخفة تلك الحروف وحركاتها، جاعلاً توالي الحركات الخفيفة سبباً يجلب للمفردة الفصاحة ويمنحها السلاسة في النطق والعذوبة في السمع، ثم كان من بعده العلوي الذي أكد ما ذهب إليه سلفه من أن الثلاثي من المفردات أفصحها ولذلك فهو أكثرها استعمالاً في لغة العرب يليه الرباعي، وأكد على دور حروف الذلاقة في تخفيف

[83] ينظر: الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: في معاني التنزيل: 37/3

الكلمة، ولكنه أجرى تعديلاً على شرط ابن الأثير جاعلاً حصول السكون في وسط الكلمة أعدل من توالي الحركات الخفيفة، غير أن عدم اطراد ما عدّه ضابطاً، وتخلفه عن بعض مفردات القرآن الكريم التي توالَت عليها حركة الضمة الثقيلة كما في (الزُّبُر، النُّذُر، سُعُر)، جعل الرافعي كذلك يدلي بدلوه، فيرى أن سر الفصاحة في هذه الكلمات هو التمهيد الصوتي التي جرى لها من قِبَلِ الكلمات التي سبقتها.

يرى الباحث أن ما ذكره علماء البيان، وإن لم يسلم من النقد ولم يطرد في كل ألفاظ اللغة، فإنه يمكن عده بمجمله صفات ووجوهاً لفصاحة المفردة وآمارات على صفائها وجمالها، وأن تخلف بعض المفردات عن شروط الفصاحة المذكورة يفسره سياقها من النظم عند استقرارها في الموضع المناسب لها، وائتلافها مع سابقاتها ومن تليها من الألفاظ مسبوكة في سياقها كما اللّبنة من البناء لا يُبتغَى بها بدلٌ فيما تؤديه من وظيفة وتفيده من معنى.

بعد تطبيق تلك الصفات والمعايير على المفردة القرآنية في إطار سورة إبراهيم توصل الباحث للنتائج التالية:

1- خلو السورة الكريمة من المفردات الغريبة التي عدها أهل اللغة وحشية قبيحة، وإن ما يطلق عليه غريب من مفردات القرآن الكريم هو في معظمه لهجات فصيحة لقبائل عربية، وإن سمو المفردة القرآنية عن المبتذل والسفسف من كلام العامة لا يدخلها في خانة الغريب ولا يكدر صفوها.

2- هناك مفردات صنعها القرآن الكريم لم تكن تجري على لسان العرب، وأخرى كانت موجودة لكن القرآن الكريم أضفى عليها دلالات أخرى.

3- لما كان قصر جذر الكلمة علَمَاً على فصاحتها؛ أحصى الباحث الأفعال والأسماء الواردة في سورة إبراهيم (عينة الدراسة) وقام بدراستها صرفياً فوجد أنها كلها من الثلاثي المجرد ومزيده، وما زاد على الثلاثي من الأسماء إلا بعض أسماء الأنبياء الأعجمية. مما يعني أن القرآن الكريم حين ينتقي كلماته يتوخى فيها الخفة، فكلما كانت اللفظة أقصر كانت أسهل على النطق وأطيب على السمع.

4- ظهر للباحث تناغم وانسجام بين مخارج حروف المفردة القرآنية، من خلال عينة شملت 43 فعلاً من سورة إبراهيم تبين أنها مؤلفة من حروف يكون الانتقال بين مخارجها وفق أكثر وجوه تأليف المفردة فصاحة وشيوعاً في اللغة، وذلك وفقاً لما قرره علماء اللغة حين جعلوا تأليف المفردة وفق اثني عشر وجهاً، من حيث جهة الانتقال بين مخارج الحروف، ثم عدّوا خمسة منها فصيحاً شائعاً.

5- درس الباحث أثر الحركة في تليين الكلمة من خلال عينات اختارها من مفردات سورة إبراهيم، فظهر له أن حركات المفردة القرآنية تشكل بتناغمها وانسجامها موجة موسيقية تريح اللسان عند النطق وتطرب الأذن، لما لتوالي الحركات الخفيفة من دور في تسهيل نطق الكلمة، إضافة إلى دور السكون في تقطيع المفردة الطويلة إلى مقاطع صوتية تجعلها بمنزلة تعدد الكلمات، وتساعد أعضاء النطق في أداء وضيفتها دون كَدٍّ وإجهاد.

6- نزل القرآن الكريم بلغة العرب واستعمل مفردات كلامهم ولكنه أعطاهم دروساً في اصطفاء المفردة، وعلمهم الدقة في انتقائها والحذاقة في استخدامها، والمهارة في توظيفها لتكون مطابقة للمعنى في النظم مؤدية ما يطلب منها بجرسها

وإيحائها وصفات حروفها وحركاتها، بحيث لا يمكن الاستعاضة عنها بمرادفاتها مهما دق الفرق بينها وصغر، وقد ساق الباحث شواهد لذلك من سورة إبراهيم.

İHYA ULUSLARARASI İSLAM ARAŞTIRMALARI DERGISI CILT: 3 SAYI: 2 GÜZ-2017
İHYA INTERNATIONAL JOURNAL OF ISLAMIC STUDIES VOLUME: 3 ISSUE: 2 FALL-2017

المصادر والمراجع

الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974 م

أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1419 هـ - 1998م

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثامنة - 1425 هـ - 2005 م

الأمالي، أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، 1344 هـ - 1926م

أنوار التنزيل واسرار التأويل، ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى - 1418 هـ

الإيضاح في علوم اللغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة الثالثة.

البخلاء، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية، 1419 هـ

بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، 1976م

البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب، الشهير بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر: 1423 هـ

تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، دار الهداية.

التبيان في تفسير غريب القرآن، أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي، أبو العباس، شهاب الدين، ابن الهائم، المحقق: د ضاحي عبد الباقي محمد، دار الغرب الإسلامي – بيروت الطبعة الأولى - 1423هـ

التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس 1984 هـ

التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة الأولى 1403هـ -1983م

تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم.

تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المحقق: سامي بن محمد، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1420هـ - 1999 م

تلخيص البيان في مجازات القرآن، المؤلف: الشريف الرضى، دار الأضواء . بيروت

تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، 2001م

الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ - 1964 م

جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الأولى، 1987م

جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.

الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود بن عبد الله الألوسي، المحقق: علي عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1415 هـ

ISSN: 2149-2344 E-ISSN:2149-2344

سر الفصاحة، أبو محمد بن سنان الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلمية، الطبعة الطبعة الأولى 1402هـ_1982م

السراج في بيان غريب القرآن، محمد بن عبد العزيز بن أحمد الخضيري، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1429 هـ - 2008 م

سنن ابن ماجة، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، 1395 هـ - 1975 م

شرح شافية ابن الحاجب، حسن بن شرف شاه الحسيني الرضي الأستراباذي، المحقق: د. عبد المقصود محمد عبد المقصود (رسالة الدكتوراه)، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى 1425 هـ- 2004م

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة 1407 هـ - 1987 م

الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية - بيروت 1419 هـ

الطراز لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ، المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة الأولى، 1423 هـ

عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1417 هـ - 1996م

العين، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، المحقق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال

غريب الحديث، أبو سليمان حمد بن محمد البستي المعروف بالخطابي، المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، دار الفكر – دمشق، 1402 هـ - 1982 م

غريب القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المحقق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، 1398 هـ - 1978 م

فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى - 1414 هـ

في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة السابعة عشر - 1412 هـ

الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه، المحقق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1408 هـ - 1988 م

لباب التأويل في معاني التنزيل، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي، المعروف بالخازن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1415 هـ

لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة - 1414 هـ

اللغات في القرآن الكريم، عبد الله بن الحسين بن حسنون، السامري، حققه ونشره: صلاح الدين المنجد، مطبعة الرسالة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1365 هـ - 1946 م

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى - 1422 هـ

المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحقق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ 1996م

مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ - 1998 م

المستدرك على الصحيحين، الحاكم محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1411 – 1990

مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2001 م

المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010م

معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، موهوب بن أحمد بن منصور الجواليقي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1410هـ، 1990م

مفاتيح الغيب للرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة - 1420 هـ

المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية،دمشق بيروت، الطبعة الأولى - 1412هـ

النكت والعيون، علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان

نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ، 2004م